الدكتور عز السيد أحمد

التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ

العربي
The Arab World for Publishing

الدكتور عز السيد أحمد

التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ

العالم العربي
The Arab World
for Publishing

☆ الكتاب : **التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ**

☆ الموضوع: **دراسات جمالية**.

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد**.

☆ عدد الصفحات: ١٣٢ صفحة.

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.

☆ النَّاشر: **العالم العربي للنشر**.

☆ **عمان**.

☆ الطبعة الأولى: **٢٠١٧م**.

☆ **تاريخ: ٢٠١٧/٧/١١ م**.

☆ تصميم الغلاف بريشة بيلسان.

☆ **الحقوق جميعها محفوظة**.

تمنع طباعة هٰذا الكتاب أو نشره، أو فصل منه، من دون موافقة خطيَّة من النَّاشر أو المؤلف. ويجب مراعاة أصول الاقتباس والتوثيق لدى اقتباس أي نصوص أو شواهد من الكتاب.

☆ بريد إلكتروني : **sameah3@gmail.com**

الإهداء

كَانَ هٰذا الكِتابُ

جُزءًا مِن أطرُوحَتي لنيلِ الماجستير

وَقَد أَهديتُها حِينها إلى أَبي وأُمِّي

رَحَلَ أَبي إِلى جوارِ الرَّحمٰن

إِليهِ وإلى أُمِّي أَطال الله عُمرَهَا

أُهدي هٰذا الكِتاب

عزت

مُقدِّمة الكتاب

المسألة الأولى التي أود الإشارة إليها في البداية وتوضيحها هي أنَّ هٰذا الكتاب واحد من ثلاثة أثلاث تمثل مجتمعة أطروحتي لنيل الماجستير في الفلسفة التي تقدمت بها إلىٰ جامعة دمشق بإشراف الأستاذ الدكتور عادل العوا، وكان في لجنة الحكم الأستاذان الدكتور عبد الكريم اليافي، والدكتور بديع الكسم.

بعد أكثر من عشر سنوات من مناقشة الأطروحة صدر الثلث الأول منها بكتاب عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ٢٠٠٥ تحت عنوان فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، وهٰذا هو الثالث الثاني، ويصدر الثلث الثالث بالتزامن مع هٰذا الكتاب إن شاء الله تعالى، هذا الكتاب الذي يعنى بالتهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ، وهو الذي اشتهر أكثر ما اشتهر بالدعابة والروح المرحة.

أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، والجاحظ هو الاسم أو اللقب الأكثر شهرة من بَيْنَ أعلام الثقافة العربية والإسلامية عبر تاريخها. لم تأت شهرة الجاحظ بعد موته شأن غير قليل من الأعلام ونجوم الفكر والثقافة والأدب، بل إنَّهُ في زمنه وحياته كان أشهر من علم علىٰ رأسه نار. وإذا وصف المتنبي بأنه ملاء الدنيا وشاغل الناس في عصره فإن الجاحظ يستحق هٰذا الوصف ورُبَّما يفوقه. فقد امتدت

شهرته امتداد دولة بني العباس في ذروة انساعها، ولم تقتصر شهرته علىٰ نخب الثقافة الفكر والأدب والسياسة وحسب، بل امتدت إلىٰ الناس عامة وعامة الناس، وتخبرنا كتب التاريخ والأدب عن قصص وحكايات تنبئ عن مدى شهرته وقيمته حَتَّىٰ في قصر الخلافة. ولا نطيل في ذٰلكَ هنا ففي الفصل الأول أبعاض من التفاصيل التي تكشف عن هٰذه الحقيقة.

من البداهة بمكان أن مثل هٰذه القيمة ومثل هٰذه الأهمية ةمثل هٰذه الشهرة مع اجتماعها في شخص واحد لا يمكن أن تكون إلا لشخص عظيم الشأن والقدرة والأهمية، فإنَّ مثل هٰذه الأهمية يمكن أيضاً أن تكون ظرفية أو طارئة ولذٰلك امتدت هٰذه القيمة والشهرة والأهمية علىٰ امتداد ما بعده من أزمان إلىٰ زمننا هٰذا.

لن نطيل في التعريف بالجاحظ فالفصل الأول مخصوص لهٰذا الشأن وإن كان باختصار وإيجاز وليس بتفصيل ولا إطناب.

تناول الكثير جدًّا من المعاصرين، ناهيكم عن القدماء، فكر الجاحظ وأدبه وفلسفته، ومنهم من اقترب من موضوعنها إلىٰ حدٍّ ما، ولٰكنَّ هٰذا البحث في فلسفة الجاحظ الجمالية هو الأول من نوعه، كما كان بحثنا في فلسفته الأخلاقية هو الأول من نوعه أيضاً.

لن أطيل في التقديم، ولن أعرف بالكتاب، أترك للقارئ التفاصيل ففيها الكثير من المناقشات الجديرة بالقراءة. أسأل الله أن أكون قد وفقت فيما نهضت له واشتغلته.

الفَصْل الأوَّل

شخصية الجاحظ وفلسفته

اسمه و نسبه

ثقافته

فلسفته

شخصيَّته

عصره

آثاره

الجَاحِظُ المتوفَّى عَامَ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩م هُوَ أَعْظَمُ رَجُلٍ أَخْرَجَتْهُ لَنَا مَدْرَسَةُ النَّظَّامِ، كان الجاحظ أَدِيباً ظَرِيفاً، وفَيْلَسُوفاً طَبِيعِيَّاً .

ج. دي بور

على الرَّغْمِ مما بلغه **الجاحظ** من مكانة وشهرة اجتماعية وفكرية وأدبية، فقد ظلت بعض معالم حياته وأصله وتاريخ مولده ومكانه مثار نقاش وجدال بين الباحثين الذين لم يبتُّوا فيها حتى الآن، والحق أن ذلك إن كان مشكلة فهي غير ذات شأن خطير يؤثر فيما قدَّمه أو فيما نحن الآن بصدده، ولذلك ليس يعنينا هنا خوض غمار الكشف عن أصله، وضبط ساعة ولادته ومكانها، وإنما سنمرُّ على ما لابدَّ من المرور عليه، بقدر ما يخصُّ بحثنا ويكون بمثابة تمهيد وتعريف بهذا المفكر الذي شغل معاصريه ولاحقيه، حتى ذهب بعضٌ إلى أنه إن كان **المتنبي** ملك الشعر العربي منازعاً أو غير منازع فإن ملك النثر العربي غير منازع هو **الجاحظ**.

اسمه ونسبه

هو **عمرو بن بحر** الكناني البصري المكنَّى بأبي عثمان، كان ثمة نتوء واضح في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكنَّ اللقب الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الآفاق هو **الجاحظ**، وقد بذل من المساعي أعزَّها

وأجلَّها كيما يمحو هذا اللقب الذي كان ينفر منه عنه، ولكنَّه عبثا كان يحاول ذلك الذي لم يؤت له[1].

أما ولادته فلم تعرف بالضبط متى كانت، فعلى الرغم من أن **ياقوت الحموي** أورد أنَّ **الجاحظ** قال: «أنا أسنُّ من **أبي نواس** بسنة، ولدت في أول خمسين ومئة، وولد في آخرها»[2] فإنَّ هناك من يصر على تواريخ أخرى، فمنهم من ذهب مع القول السابق، ومنهم من قال إنما ولادته كانت سنة ١٥٥ هـ، وجعلها بعضهم سنة ١٥٩ هـ، ولكنَّ جلَّ الباحثين قالوا: إن تاريخ ميلاده الصحيح هو عام ١٦٠ هـ[3] أما وفاته لم نجد من يشكَّ في أنها كانت في البصرة سنة ٢٥٥ هـ. ٨٩٦ م.

وكما اختلفت أقوال المؤرخين في تاريخ الولادة، فقد تباينت الآراء كذلك في تحديد أصله، فمن ذاهب إلى أنَّه عربي صرف من بني كنانة، وكنانة عربية الأصل، ترجع إلى مضر، ومن ذلك نعت **الجاحظ** أيضاً بالكناني[4] وذهب آخرون إلى أنَّه من الموالي، أعجمي الأصل أو متحدِّرٌ من الزنج[5] ومهما يكن من أمر مشكلة

---

(١) . هناك مصادر ومراجع كثيرة تناولت حياة الجاحظ وأخباره وآثاره فمن المصادر مثلاً: الفهرست لابن النديم، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني، وتاريخ بغداد للقفطي، ومروج الذهب للمسعودي، وأمالي المرتضى. ومن المراجع الكثيرة نذكر: الجاحظ ومجتمع عصره لشارل بللا، وأدب الجاحظ لحسن السندوبي، والجاحظ لأحمد الحوفي، وضحى الإسلام لأحمد أمين، وتواريخ الأدب العربي بمجملها مثل شوقي ضيف وكارل بروكلمان وعمر فروخ ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم.

(٢) . ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** . ج ١٦ . ص ٧٤.

(٣) . المصادر السابقة.

(٤) . حسن السندوبي: **أدب الجاحظ** . ص ١٢. وكذلك: ابن خلكان : **وفيات الأعيان** . ج ٣ . ص ٢٤٠.

(٥) . شارل بللا: **الجاحظ** . ص ٩٣. وكذلك ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** . ج ١٦ . ص ٧٤. وكذلك طه الحاجري: **الجاحظ** . ص ٨٣.

أصل **الجاحظ** فإنَّها غيرُ ذاتِ شأنٍ يذكر أو يستحق إثارة البحث فيها، لأنَّ ذلك لن يغير أو يؤثر في شيءٍ، أو أنَّه لن يقود البتة إلى تغيير نظرتنا فيه، فانتماؤه إلى العروبة واضح، وولاؤه أشدُّ وضوحاً من الشمس في رابعة النهار.

ثقافته

كان **للجاحظ** منذ نعومة أظفاره ميلٌ واضح ونزوعٌ عارمٌ إلى القراءة والمطالعة حتى ضجرت أمه وتبرَّمت به[٦] وظلَّ هذا الميل ملازماً له طيلة عمره، حتَّى أنَّه فيما اشتهر عنه لم يكن يقنع أو يكتفي بقراءة الكتاب والكتابين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[٧] ويورد **ياقوت الحموي** قولاً **لأبي هفَّان** . وهو من معاصريه ومعاشريه . قولا ينُمُّ عن مدى نهم **الجاحظ** بالكتب، يقول فيه: «لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من **الجاحظ**، فإنَّه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان»[٨] ولا عجب إذ ذاك في أن يُفْرِد الصفحات الطوال مرَّات عدَّة في كتبه، للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها. والحقُّ أنَّه «كان أشبه بآلة مصوِّرة، فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم في ذهنه، ويظل في ذاكرته آماداً متطاوله»[٩].

---

(٦) . شوقي ضيف: **العصر العباسي الثاني** . ص ٥٨٩. وكذلك ابن المرتضى: **طبقات المعتزلة** . ص ٣٨٠. وكذلك: شارل بللا: **الجاحظ** . ص ١٠٨/١٠٩.

(٧) . ابن النديم: **الفهرست** . ص ١٧٥.

(٨) . ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** . ج ١٦ . ص ٧٥.

(٩) . شوقي ضيف: م. س . ص ٥٨٩.

ولكن مفكرنا لم يقصر مصادر فكره ومعارفه على الكتب، ولاسيما أن ذلك عادة مذمومة فيما أخبرنا هو ذاته وأخبرنا كثيرون غيره، إذ العلم الحق لا يؤخذ إلا عن معلم، فتتلمذ على أيدي معلمين علماء كثر واغتنى فكره من اتصاله بهم، وهو وإن لم يتفق مع بعضهم أو لم يرض عنه فإنه أقرَّ بفضل الجميع ونقل عنهم وذكرهم مراراً بين طيات كتبه.

لقد تكونت لدى **الجاحظ** ثقافة هائلة ومعارف طائلة عن طريق «التحاقه بحلقات العلم المسجدية التي كانت تجتمع لمناقشة عدد كبير وواسع من الأسئلة، وبمتابعة محاضرات أكثر الرجال علماً في تلك الأيام، في فقه اللغة وفقه النحو والشعر، وسرعان ما حصَّل الأستاذية الحقيقية في اللغة العربية كثقافة تقليدية، وقد مكنَّه ذكاؤه الحاد من ولوج حلقات المعتزلة حيث المناقشات الأكثر بريقاً، والمهتمة بالمشاكل التي تواجه المسلمين، وبالوعي الإسلامي في ذلك الوقت»(١٠).

ونظراً لسعة علمه وكثرة معارفه وصفه **ابن يزداد** بقوله: « هو نسيج وحده في جميع العلوم، بين علم الكلام، والأخبار، والفتيا، والعربية، وتأويل القرآن، وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة»(١١).

وإن كان معاصرو **الجاحظ** من العلماء، على موسوعية ثقافتهم، أقرب إلى التخصص بالمعنى المعاصر، فإن « تردُّد **الجاحظ** على حلقات التدريس المختلفة قد نجَّاه من عيب معاصريه ذوي الاختصاص الضيق، فهو بدرسه العلوم النقليَّة قد ارتفع فوق مستوى الكتَّاب ذوي الثقافة

---

(١٠). The Encyclobedia of Islam. vo.2, p.385

(١١). القاضي عبد الجبار: **فرق وطبقات المعتزلة**. ص ٧٤.

الأجنبية في أساسها القليلة النصيب من العربية وغير الإسلامية البتة»[١٢] ولذلك «لم يكتف بالتردُّد على أوساط معينة بغية التعمق في مادَّة اختارها بل لازم كلَّ المجامع، وحضر جميع الدروس، واشترك في مناقشات العلماء المسجديين، وأطال الوقوف في المربد ليستمع إلى كلام الأعراب، ونضيف إلى جانب هذا التكوين، الذي لم يعد له طابع مدرسي محدود، المحادثات التي جرت بينه وبين معاصريه وأساتيذه حول مختلف المواضيع»[١٣].

أما أساتذة **الجاحظ** الذين تتلمذ عليهم وروى عنهم في مختلف العلوم والمعارف فهم كثر جداً، وهم معظم علماء البصرة إبان حياته، المظنون أنَّ **الجاحظ** لم ينقطع عن حضور حلقاتهم ولكن مترجميه يكتفون بقائمة صغيرة منهم غالبا ما تقتصر على العلماء الأجلة المشهورين، ومهما يكن من أمر، وبناءً على بعض المصادر، نستطيع القول: إن أهم هؤلاء الأساتذة في ميدان علوم اللغة والأدب والشعر والرواية هم: **أبو عبيدة معمر بن المثنَّى التميمي والأصمعي وأبو زيد بن أوس الأنصاري ومحمد بن زياد بن الأعرابي وخلف الأحمر وأبو عمر الشيباني وأبو الحسن الأخفش وعلي بن محمد المدائني**. وفي علوم الفقه والحديث: **أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ويزيد بن هارون والسري بن عبدويه والحجَّاج بن محمد بن حماد بن سلمه** بالإضافة إلى **ثمامة بن الأشرس** الذي لازمه **الجاحظ** في بغداد.

وفي الاعتزال وعلم الكلام: **أبو الهذيل العلاَّف والنَّظَّام وموسى بن عمران وضرار بن عمر والكندي وبشر بن المعتمر الهلالي وثمامة بن أشرس النميري**

---

(١٢). شارل بللا: **الجاحظ**. ص ١١٣.

(١٣). م. س. ص ١٠٩.

وأحمد بن حنبل الشيباني(١٤). وثمة علماء ومفكرون آخرون لاتقلُّ أهميتهم عن هؤلاء، و**الجاحظ** ذاته لم يَغفل عن ذكر معظمهم.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك **أصالة الجاحظ** ونبوغه وألمعيَّته واتقاد قريحته، وجليل إسهامه وإبداعاته وجدناه يستحق بجدارة كاملة كلَّ ما قاله فيه مريدوه ومحبُّوه والمعجبون به من تقريظات ساحرة باهرة، تكاد تبدو لمن لم يطَّلع على آثار **الجاحظ** ووحياته وفكره محض مبالغات، ومما أورده **ياقوت الحموي**، ويوجز فيه لنا ما سبق بلفظ أنيق وتعبير رشيق قوله: «**أبو عثمان الجاحظ**، خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدرة المتقدمين والمتأخرين، إن تكلَّم حكى **سحبان** في البلاغة، وإن ناظر ضارع **النَّظَّام** في الجدال، وإن جدَّ خرج في مَسك **عامر بن عبد قيس**، وإن هزل زاد على **مزبد**، حبيب القلوب، ومزاج الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشاه أنفاً، ولا تعرَّض له منقوص إلا قدَّم له التواضع استبقاءً، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصَّة تسلم له، والعامة تحبُّه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلَّته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه»(١٥).

---

(١٤). انظر في: The Encyclobedia of Islam. vol. 2, p. 385/ 386. و: شارل بللا: الجاحظ. ص ١١٧. و: ابن خلكان: **وفيات الأعيان**. صفحات متعددة.

(١٥). ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**. ج ١٦. ص ٩٧.

فلسفته

لقد تلاقحت في ذهن **الجاحظ** أصالته المبدعة وقريحته المتقدة مع غزارة المعارف والآداب والعلوم التي استقاها من مناهل متعددة الجوانب ومتباينة الاتجاهات،، وأثمرت عن رؤية جاحظية، لمختلف هذه المعارف والآداب والعلوم. ولو أردنا تتبع كلَّ جوانب أصالته ومواقفه من كلِّ ما ذكرناه لطال بنا الأمر كثيراً وخرجنا عن صلب بحثنا، ولذلك سَنُعْرِضُ عن كثيرٍ من الجزئيات والأعراض، ونقتصر قدر المستطاع على أهمِّ وأَبينُ ما امتازَ بهِ مَنْحَى **الجاحظ** الفكري والفلسفي. ولعلَّ من يتساءل هنا على وجه الخصوص، ولدى قراءة عنوان البحث على وجه العموم، ويقول: أكان **الجاحظ** فيلسوفاً حتى تعنون هذه الفقرة بما عنونتها أو تعدَّ عنه بحثاً قيميَّاً وكأنَّه فيلسوف؟

قطعاً، إن لم يكن **الجاحظ** فيلسوفاً لا يمكن عدُّ كلِّ ما قدَّمه وأثرى به المكتبة العربية فلسفةً، وبالمثل تماماً، إن لم يكن النتاج الجاحظي فلسفة فلا مجال للمحاباة أو المجاملة أو المبالغة واعتباره فيلسوفاً، ولست هنا في مهرجان اعتداد بالذات التراثية كما أنَّا لا نخطب خطبة حماسية في تمجيد التراث والأجداد كيما تدعونا العواطف إلى خلع الألقاب كيفما اتفق ، بل وليس خلع الألقاب من حقنا هكذا جزافاً من غير ضابط ولا ناظم، ولذلك يجب أن ننظر في المسألة برويَّة وعمق.

صحيح أن للفلسفة تعريفات متباينة متباعدة[١٦] إلا أن هذا الانشعاب ليس افتراقاً من غير ملتقى، ولا تنافراً من غيرما تجاذب، وإنما ثمة محاور محدَّدة تنتظم

(١٦) . انظر تعريفات الفلسفة والفيلسوف في:

حولها كلُ التعريفات مهما تباعدت مراميها وألفاظها المعبرة عنها، والحقُّ أنَّه من العسير إدراج **الجاحظ** ضمن فريق الفلاسفة لأن محاور الانتظام هذه لا تعدو الجانب الاصطلاحي للفلسفة ولا تتعداه وتنقلنا دائماً إلى حيِّز التأطير النظري وصهر الآراء والأفكار في بوتقة نظام واحد منسجم ومتكامل، وربما ألحف البعض على ضرورة انتظامها حول جملة محدَّدة من المبادئ الأساسية التي تقود إلى نظرة شاملة عن الكون.

ولن نحاور ونداور لعدِّ **الجاحظ** فيلسوفاً، فليس في ذلك أية مشكلة، لأننا لا نستطيع أن ننكر البتة أن مفكرنا قدم أبحاثاً فلسفية وأغنى البحث الفلسفي بمعالجاته لمختلف الموضوعات الفلسفية؛ الفيزيائية والميتافيزيائية. فتحدث في الألوهية والخلق والنبوة، والإنسان ومشكلاته الاجتماعية والأخلاقية والجمالية والدينية والنفسية... وأضفى عليها من شخصيته وأسلوبه رونقاً وألقاً خاصاً، ووصل إلى نتائج إما قديمة ولكن بأسلوبه وطريقته ومنهجه ، وإما جديدة لم يسبق إليها، وهذه مسألة يطول البحث فيها، على أننا وإن لم نجد من اضطلع بهذه المهمة كاملة فإن كثيرين تطرقوا لفكر **الجاحظ** وكشفوا النقاب عن بعض ذلك، ولذلك نأمل إما أن تتاح لنا العودة إلى هذه المهمة أو أن ينهض غيرنا بها، لأنها تستحق أن يبذل من أجلها جهد، ومهما يكن من أمر فإنَّ ما قدمه **أبو عثمان** لا يقل البتة عمَّا قدَّمه أيُّ فيلسوف، ويكفينا لتأكيد جدارة **الجاحظ** بلقب (فيلسوف) ما سنعرض له من كونه صاحب اتجاه معتزلي،

A. Lalande: Vocabulaire Technique et critique de la hilosophie. Seme ed, paris. 1960. p. 771/ 777 .

إذ المعلوم أنَّ علماء الكلام كانوا فلاسفة في إطار خصوصية الفلسفة العربية، هذا دون أن ننسى منهجه الفلسفي وروحه النقدية.

الاتجاه الجاحظي في الاعتزال

يُعدُّ **الجاحظ** في رأي ج. **دي بور** مؤرخ الفلسفة الإسلامية «أعظم رجل أخرجته لنا مدرسة **النَّظَّام**»(١٧) ويُجمع مؤرخو الفرق الإسلامية أمثال **أبي الحسن الأشعري** في كتابِه مقالات الإسلاميين، و**ابن المرتضى** في كتابه طبقات المعتزلة، **والشهرستاني** في كتابه الملل والنحل، **والمسعودي** في كتابه مروج الذهب، **وابن خلدون** في مقدمته وغيرهم كثيرون من مؤرِّخي الفكر والأدب العربي، على أن **الجاحظ** أحد كبار شيوخ المعتزلة وصاحب فرقة من فرقهم هي التي دعيت بالجاحظية وكان لها أنصار وأتباع.

لم يفترق **أبو عثمان** عن المعتزلة في مبادئهم الرئيسة، المعروفة بالمبادئ الخمسة وهي: العدل، والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنَّه انفرد واستقل عنهم باتجاهه بمجموعة من الآراء والمواقف الخاصة، وتَمثَّل ذلك بنظريته في المعرفة التي قادته إلى آرائه الخاصة في الله والنُّبوة والإمامة.

ومن أهم ما انفرد به قوله: «إنَّ المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعاً كما قال **ثمامة**، ونُقل عنه أيضاً أنَّه أنكرَ أصلَ الإرادة، وكونها جنساً من الأعراض، فقال: إذا انتهى السهو عن الفاعل وكان عالما بما يفعله، فهو المريد على التحقيق، وأمَّا الإرادة المتعلِّقة بفعل الخير فهو

(١٧). ج. دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام**. ص ١١٢.

ميل النفس إليه، وزاد ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وأثبت أن لها أفعالاً مخصوصة بها، وقال باستحالة عدم الجواهر، فالأعراض تتبدل، والجوهر لايجوز أن يفنى»[١٨].

«والإنسان عنده قادر أن يعرف الخالق بعقله، وعلى أن يدرك الحاجة إلى الوحي الذي ينزل على الأنبياء، وعنده أنَّ العالم الحقَّ يجب أن يضم إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطبيعي، وهو يصف في كلِّ شيء أفاعيل الطبيعة، ولكنَّه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من أثر خالق الكون»[١٩].

ومن ذلك أيضاً «قوله في أنَّ أهل النار لا يخلَّدُون فيها عذاباً، بل يصيرون إلى طبيعة النار، وكان يقول: النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحدٌ فيها، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات. وفي إثبات القدر. خيره وشره من العبد، مذهب المعتزلة.

وحكى **الكعبي** عنه في نفي الصفات أنَّه قال: يوصف الباري تعالى بأنَّه مريد، بمعنى أنَّه لا يصحُّ عليه السهو في أفعاله، ولا الجهل، ولا يجوز أن يُغلبَ ويُقهرَ، وقال: إنَّ الخلق كلهم من العقلاء، عالمون بأنَّ الله تعالى خالقهم، وعارفون بأنَّهم محتاجون إلى النبي، وهم محجوجون بمعرفتهم، ثمَّ هم صنفان، عالم بالتوحيد وجاهل به، فالجاهل معذور، والعالم محجوج، ومن انتحل دين الإسلام، فإن اعتقد أنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يُرى بالأبصار، وهو عدل لا يجور، ولا يريد المعاصي، وبعد الاعتقاد والتبيين أقرَّ بذلك كلِّه، ثم جحده وأنكره، أَو دان بالتشبيه

---

(١٨). الشهرستاني: **الملل والنحل**. ص ٩٤.

(١٩). ج. دي بور: م. س. ص ١١٢.

والجبر، فهو مشرك كافر حقًّاً. وإن لم ينظر في شيء من ذلك، **وَاعْتَقَدَ أَنَّ الله رَبَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فهو مؤمن لا لوم عليه**، ولا تكليف عليه غير ذلك»[٢٠].

منهج الجاحظ العلمي

انتهج **الجاحظ** في كتبه ورسائله أسلوبا بحثيا أقلُّ ما يقال فيه إنه منهج بحث علمي مضبوط ودقيق، يبدأ بالشك لِيُعْرَضَ على النَّقد ويمرُّ بالاستقراء على طريق التعميم والشمول بنزوع واقعي وعقلاني وهو «في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكِّه وتعليله كان يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة»[٢١] ولكنَّه استطاع برهافة حسِّه أن يسبغ على بحثه صبغة أدبية جمالية تضفي على المعارف العلمية رواءً من الحسن والظُّرْف، يرفُّ بأجنحته المهفهفة رفيف حنوٍّ على الحقائق الجافية، ليسيغها في الأذهان ويحببها إلى القلوب، وتي ميزة قلَّت نظيراتها في التراث الإنساني.

أولاً: الشك

لم يكتف **أبو عثمان** بالشك أساساً من أسس منهجه في البحث العلمي بل عرض لمكانة الشك وأهميته من الناحية النظرية في كثير من مواضع كتبه، ومن أهم ما قاله في ذلك: «واعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلَّم الشَّك في المشكوك فيه تعلُّماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرُّف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثمَّ اعلم

(٢٠). شفيق جبري: **الجاحظ** . ص ١١٦.

(٢١). عبد المنعم خفاجي: **أبو عثمان الجاحظ** . ص ١٨٥.

أنَّ الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أنَّ اليقين طبقات في القوة والضعف»[٢٢].

يتبيَّنُ لنا من الشاهد السابق مجموعة من النقاط المهمَّة التي تفصح عن أصالة **الجاحظ** وتجلو ملمحاً من ملامح عبقريته، فهو لم يرد الشَّك لمجرد الشَّك، ولا يقبل أن يكون الشك كيفما اتفق ولا في كلِّ أمرٍ على حدٍّ سواء ولا بالطريقة ذاتها، إن الشَّك الجاحظي، بهذا المعنى، لا يختلف البتة عن الشَّك المنهجي عند **الإمام الغزالي** والفيلسوف الفرنسي **رينه ديكارت**[٢٣] . Rene Descrtes، فكلٌّ منهم أراد الشك طلباً للحقيقة، الحقيقة الجلية الواضحة، التي لا تقبل تفاوتاً في الدرجات.

ثانياً: النقد

إنَّ تتبُّعَ كتب **الجاحظ** ورسائله يكشفُ لنا عن عقليَّة نقديَّةٍ بارعةٍ؛ نقديَّة بالمعنى الاصطلاحي المنهجي وبالمعنى الشائع للانتقاد، فنقده بالمعنى الشائع يتجلى أكثر ما يتجلى في تهكُّمه وتعليقاته الساخرة التي لم يسلم منها جانبٌ من جوانب المعرفة ولا مخطئٍ أمامه أو واصلٌ إليه خبره، ومن ذلك مثلاً تهكُّمه **بالخليل بن أحمد الفراهيدي** من خلال علم العروض الذي قال فيه: «**العروض علمٌ مردود، ومذهبٌ مرفوض، وكلام مجهول، يستكدُّ العقول، بمستفعل ومفعول، من غير فائدة ولا محصول**»[٢٤].

---

(٢٢) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٦ . ص ٣٥.

(٢٣) . انظر تفصيل ذلك في دراستنا: **الشك المنهجي من الإمام الغزالي إلى ديكارت**. مجلة التراث العربي . العدد٤٤ .

(٢٤) . جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٣٣.

أما نقده المنهجي فما أكثر ما تجلى في كتبه ورسائله في تعامله مع مختلف الموضوعات المعرفية؛ العلمية والأدبية ومن ذلك نقده لعلماء عصره ومحدثيه ورواته وفقهائه والعلماء السابقين، والشواهد على ذلك جدٌّ كثيرة، تجعلنا في حيرة أمام اختيار واحد منها.

انتقد بعضهم اتجاه علماء الكلام نحو الأمور الطبيعية بالعناية والدراسة فقال: «لو كان بدلُ النظرِ فيهما النظرَ في التوحيد[٢٥]، وفي نفي التشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التعديل والتجويد، وفي تصحيح الأخبار، والتفضيل بين علم الطبائع والاختيار، لكان أصوب، فردَّ عليه **الجاحظ** ناقداً ادعاءه بقوله: العجبُ أنَّك عمدت إلى رجالٍ لا صناعة لهم ولا تجارة إلا الدُّعاءُ إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وضع الكتب فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهم لذَّة ولا همٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلاَّ عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يقسِّطوا بين الجميع بالحِصص، ويَعْدِلوا بين الكلِّ بإعطاء كلِّ شيءٍ نصيبه، حتى يقع التعديل شاملاً، والتقسيط جامعاً، ويظهر بذلك الخفيُّ من الحكم، والمستور من التدبير، اعترضتَ بالتعنُّت والتَّعجُّب، وسطَّرت الكلام، وأطلت الخطب، من غير أن يكون صوَّب رأيك أديبٌ، وشايعك حكيمٌ»[٢٦].

وبنظرة عجلى في آثار **الجاحظ** « فإنك تراهُ وهو يطلق العنان لقلمه في جلِّ كتبه . يزيِّف الخرافات والترّهات في عصره وقبل عصره، ويورد عليك نقداته ومباحثاته، فيقطع في نَفْسك أنَّه لو جاء كثيرٌ مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من السخافات، حيث أنَّ **الجاحظ** نفسه يقول: ومما لا أكتبه لك من

(٢٥). ضم (بدل) وفتح (النظر) من المحقق، والأقوم الفتح ثم الضم.

(٢٦). الجاحظ: **الحيوان**. ج ١. ص ٢١٨.

الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كلُّ وقاح أخبار....»[٢٧] ولذلك ما أكثر ما كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية بقوله زعم فلان، وزعموا، ثم يعقب بتحليله ونقده «بعقل راجح، ونظر صائب، وأسلوب سهل عذب متنوع دقيق فكه، يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة، ولا يزال يولِّده حتى لا يترك فيه قولاً لقائل»[٢٨].

ثالثاً: التجريب والمعاينة

إذا كان النقد هو الخطوة اللاحقة على الشكِّ فإنَّ المعاينة والتجريب هي الخطوة المقترنة بالنقد والمتلازمة معه، ولاسيما في مسائل العلم الطبيعي، و**الجاحظ** لم ينس هذه الخطوة ولم يتناسها بل جعلها عماداً لازماً من أعمدة منهجه البحثي، وقد تجلى ذلك باتجاهين؛ أولهما قيامه بالمعاينة والتجريب بحدِّ ذاته، وثانيهما نقل تجارب أساتذته ومعاصريه، ولقد أجرى **الجاحظ** كما أخبرنا تجارب ومعاينات كثيرة للتثبت من معلومة وصلت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم يستسغه عقله، والأمثلة على ذلك جدُّ كثيرة نذكر منها تجربته في زراعة شجرة الآراك وقصته الطويلة معها للتأكد مما قيل عن تكاثر الذَّرِّ عليها[٢٩] ويصف لنا بُرنية زجاج وضعت فيها عشرون فأراً مع عشرين عقرب، وما فعلته العقارب بالفئران[٣٠] وكذلك عندما أجمع أناس، بينهم طبيب، على أن الجمل إذا

(٢٧). محمد كرد علي: **أمراء البيان**. ص ٣٦٥/٣٦٦.

(٢٨). د. عادل العوا: **المذاهب الفلسفية**. ص ١٧٢.

(٢٩). الجاحظ: **الحيوان**. ج ٥. ص ٤١٣/ ٤١٤.

(٣٠). م. س. ج ٥. ص ٤٥٠.

نُحِر ومات والتمست خصيته وشقشقته فإنهما لا توجدان، فأرسل إلى جزَّار أن يأتيه بالخصية والشقشقة إذا نحر جملاً، ففعل، فلم يكتف بذلك، فبعث إليه رسولاً يقول: «ليس يشفيني إلا المعاينة» ففعل ودحض هذا الادعاء[٣١] ولجأ أيضاً إلى تجريب بعض المواد الكيماوية في الحيوان ليعلم مبلغ تأثيرها فيها وليتأكد مما قيل فيها[٣٢] ومما أورده من تجارب غيره تجربة أستاذه **النَّظَّام** عندما سقى الحيوانات خمراً ليعرف كيف يؤثر الخمر في الحيوان، ولم يكتف بنوع واحد بل جرَّب على عدد كبير من الحيوانات كالإبل والبقر والجواميس والخيل والبراذين والظباء والكلاب والسنانير والحيات وغيرها[٣٣].

شخصيَّته

قال الأُستاذ المرحوم **شفيق جبري** في مستهلِّ محاضراته في **الجاحظ**: «إنَّ أوَّل أثرٍ من آثار دراسة كتُبه حيرةٌ يحارها المرء في خصب عبقريَّته، فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية، ولا كيف يفرغ من هذا الكلام، ولا عجب في ذلك، فإنَّ رجلاً يكتب له أن يعيش قرناً بوجه التقريب، لم يقع في خلاله بيده كتاب إلا استوفى قراءته، كائناً ما كان، إنَّ رجلاً يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنَّظر، لا عجب من خصب عقله»[٣٤] ونظراً لوشاجة الصلة ووثاقة العلاقة بين العبقرية والابداع من جهة والشخصية من جهة ثانية، ونظراً لما لخصائص

---

(٣١). م. س. ج ٦. ص ٣٤٩.

(٣٢). م. س. ج ٤. ص ٣٦. كذلك ج ٥. ص ٣٦٥.

(٣٣). م. س. ج ٢. ص ٢٢٩/ ٢٣٠.

(٣٤). شفيق جبري: **الجاحظ**. ص ٢٧.

الشخصيَّة من دلالات مهمَّة تجلو لنا مزيداً من الجوانب الخفية في أسلوب الكاتب ومقاصده، فقد بات من الضرورة الملحفة بمكان أن نعرِّج على بعض أهمِّ جوانب شخصية مفكرنا، دون الاستطراد أو التوسع في ذلك، لأنَّه أمر قد يحتاج إلى بحث مستقلٍّ مطوَّلٍ، ولاسيما أن الحديث على الشخصيَّة قد لا يتوقف عند أهمِّ خصائصها المميزة، بل قد يتعدى ذلك إلى ميولها وأهوائها وقدراتها والمؤثرات المختلفة فيها، وغير ذلك ممن يدرج في بابه، ولذلك سنقف، باختصار، عند النقاط الثلاث التالية:

أولاً: خصائصه الجسمية

يستدلُّ **شارل بللا** من شدَّة سمرة **الجاحظ**، مستعيناً بنظريَّة الوراثة، على أنَّه ذو أصل إفريقي[٣٥] وليس يعنينا من ذلك هنا إلا أنَّ **الجاحظ** كان ذا بشرة شديدة السمرة تقرب من بشرة الزنج، ويضاف إلى ذلك ما أجمعت عليه المصادر القديمة من أنَّه كان قصير القامة، صغير الرأس، ناتئ العينين، دقيق العنق، صغير الأذنين، حتى أصبح مضرب المثل في القبح والدمامة، وقيل في ذلك شعراً، أورده **البغدادي** في الفرق بين الفرق و**الأبشيهي** في المستطرف وهو:

لَـــوْ يُمْسَـــخُ الخِنْزِيـــرُ مَسْخـــاً ثَانِيـــاً
مَـــا كَـــانَ إلاَّ دُوْنَ قُـــبْحِ الجَـــاحِظ

رَجُـــلٌ يَنُـــوبُ عَـــنِ الجحِـــيْمِ بِوَجْهِـــهِ
وَهُـــوَ القَـــذَى فِـــي عَـــيْنِ كُـــلِّ مُلاَحِـــظِ

(٣٥). شارل بللا: **الجاحظ**. ص ١٠١.

وَلـــــوَ انَّ مِـــــرْآةً جَلَـــــتْ تِمْثَـــــالَهُ
وَرَآهُ، كَـــــانَ لَـــــهُ كَـــــأَعْظَمِ وَاعِـــــظِ

بـل إنَّ **الجـاحظ** ذاتـه، فيمـا وصـلنا مـن الأخبـار عنـه، قـد تنـدَّر بقبحـه، وهـذا مـا سـنعرض لـه في البـاب الأخـير، فقـال مـثلاً: «**ذكـرت للمتوكـل لتأديـب بعـض ولـده، فلمَّـا رآنـي استبشـع منظـري فـأمر لـي بعشـرة آلاف درهـم وصـرفني**»[٣٦] ومـن ذلـك أيضـاً حديثـه عـن المـرأة الـتي اقتادتـه مـن أمـام منزلـه إلى دكـان الصـائغ لتقـول للأخـير مثـل هـذا وتنصـرف، ليتضـح **للجـاحظ** أنهـا شـبَّهته بالشـيطان وأرادت مـن الصـائغ أن يـنقش لهـا صورته على قلادتها[٣٧].

فهل كان الجاحظ قبيحاً إلى هذا الحد؟

يرى **شارل بللا** أنَّه من الجدير بنا في هذا المجال ألا نبالغ في قبح **الجاحظ**، فإنَّ تاريخ الأدب القديم قد رسم لنا صورة ليس فيها شيء من الأناقة، بل ويذهب بـه الأمـر إلى حـدِّ التشـكيك في تنـدُّر **الجـاحظ** بقبحـه ويظـن ذلـك منسـوباً إليـه استناداً إلى ميل **الجاحظ** للدعابة والتهكم[٣٨] ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع أن نسـم مفكرنـا بالوسـامة والحسـن ، كمـا لا نسـتطيع إلا الإقـرار بأنَّـه كـان على نصيب مـن القـبح والبشـاعة لثبـوت ذلـك وصـفاً، واسـتقرائه مـن سـمات **الجـاحظ** الجسمية، ولعلَّ هذا ما أثار إرادة التحدي في قرارة ذات مفكرنا ودفعه إلى مواصلة

(٣٦) ـ ابن خلكان: **وفيَّات الأعيان** . ج ٣ . ص ١٢١. كذلك في **مروج الذهب** للمسعودي . ج ٤ . ص١٠٠.

(٣٧) ـ انظر تفاصيل هذه النادرة في الفصل الرابع من الباب الرابع من بحثنا هذا.

(٣٨) ـ شارل بللا: **الجاحظ** ـ ص ١٠١/١٠٢.

الجدِّ والجهد للتفوق وإبراز الإمكانات الإبداعية والأساليب الممتعة المشوقة كيما يتصدر المكانة المرموقة والمهمة بين مفكري عصره، وهذا ما كان منه مما يُفسر بالارتكاس على عقدة الشعور بالنقص.

ثانياً: عبقريته

تجلَّت عبقرية **أبي عثمان** في مناحٍ جدِّ متعدِّدة ومتباينة، ولعلها تتجلى أكثر ما تتجلى في الكم الهائل من الكتب والرسائل التي خلفها لنا، وقد لاحت ملامح هذه العبقرية في فترات مبكرة من حياته وهي التي جعلته يفرض ذاته حلقة من حلقات المعتزلة.

ولن نطيل في الحديث عن هذه العبقرية هنا لأننا كشفنا بعض جوانبها، وسنكرس بحثنا لكشف جانب مهم منها، وحسبنا أن نشير إلى ما وصل إليه من مكانة سامية عليَّةٍ جنى ثمارها بفضل هذه العبقرية، بل هناك من ذهب إلى أنَّه لم يضع كل علمه في كتبه، ولاسيما في البلاغة، ضنَّاً به على غير أهله(٣٩).

ولا ننسى قوة عارضته في النقاش والجدل، وقدرته النقدية وفنونه الكلامية، ومنهجه وأسلوبه وغير ذلك من الأمارات التي يضيق المجال عن التوسع في ايضاحها.

ثالثاً: أسلوبه

إنَّ الكلام على أسلوب **الجاحظ** بعيد الغور واسع المدى، فهو لا يقتصر على كيفيَّة تناوله موضوعاته، ولا يتوقَّف عند تراكيبه وعباراته، ولا ينحصر في تنويعه واستطراده، ولا يكفي فيه انتقاؤه ألفاظه، ولا حتطرائق تعامله مع الناس في

(٣٩). ابن بسَّام: **الذخيرة**. ج ١. ص ١٩٨.

حياته، إنَّه كلُّ ذلك وأكثر، ولاسيما وأن للأسلوب في كل ذلك ما ينبي عن الشخصية وتركيبتها النفسية، كما يقول علماء النفس. ولذا فإننا قد لانغلو إن عرضنا هذا التقريظ البديع الذي أورده **أبو حيان التوحيدي** ألمع تلاميذ **الجاحظ**، لأسلوب مفكرنا، وهو يكشف عن كثير مما يعتلج في نفسنا، ويعبر عن جلِّ ما ذكرنا، باسلوب لا يقل روعة عن أسلوب **الجاحظ** وببلاغة لا تقل عن بلاغته، يقول(٤٠):

«و**أبو عثمان الجاحظ**، فإنَّك لاتجد مثله، وإن رأيتُ ما رأيتُ رجلاً أسبق في ميدان البيان منه، ولا أبعَدَ شوطاً، ولا أمدَّ نَفَساً، ولا أقوى منه، إذا جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور، وكَلَّ لسان المسحنفر الصبور، وانتفخ سحر العارم الجسور، ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حَوْكاً كثير الوشي، قليل الصنعة، بَعِيدَ التَّكلُّف، مليح العَطَل، له سلاسة كسلاسة الماء، ورقَّة كرقَّة الهواء، وحلاوة كحلاوة الناطل، وعزَّة كعزَّة **كليب وائل**، فسبحان من سَخَّرَ له البيان وعلَّمه، وسلم في يده قصب الرهان وقدَّمه، مع الاتساع العجيب، والاستعارة الصائبة، والكتابة الثابتة، والتصريح المغني، والتعريف المُنْبِي، والمعنى الجيِّد، واللفظ المفخَّم، والطلاوة الظاهرة، والحلاوة الحاضرة، إن جدَّ لم يسبق، وإن هزل لم يلحق، وإن قال لم يعارض، وإن سكت لم يُعرض له».

لا نريد أن نطلق عنان التأويل لاستيلاد خصائص وسمات شخصية **الجاحظ** من هذا النص، ولكننا، ومن غير مبالغة، نستطيع القول، إن هذا الوصف ، الذي كثر ما يماثله في تقريظ مفكرنا، يدل على شخصية فذَّة، واثقة

(٤٠). التوحيدي: **البصائر والذخائر**. ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

الخطى، جمَّة الثقافة والمعرفة،غنية الفكر واللغة، ميالة إلى المرح والدعابة، متفائلة، وكلُّ ذلك من خصائص شخصية **الجاحظ** فعلاً، ويمكن اكتشافه ببساطة من مطالعة بعض كتبه

الحياة الاجتماعية في عصره

عصر **الجاحظ** أغنى عصور الدولة العربية والإسلامية على الإطلاق في مختلف الميادين والموضوعات والمجالات، وأعزها على الإطلاق منذ بدء الرسالة إلى اليوم. ولذلك فإن الوقوف عند هذا العصر أمرٌ عسير، وسيكون مسخاً إذا أردناه جزءاً من فصل في كتاب وهو الذي سلخت له الكتب الكبيرة[٤١].

لذلك فقط سنمر سريعاً على الحياة الاجتماعية في عصره لما لها من صلة بموضوع الكتاب.

كان تنوُّع الحياة الاجتماعيَّة وتطوُّرها بما لا يقلُّ عن غنى الحياة العلميَّة وثرائها، ولعَلَّنا لا نعدو الحقَّ إذا قلنا بأنَّ ثَمَّةَ ترابطاً وثيقاً بَيْنَ هذين الثَّرائين في التَّنوع وتسارع وتائر تنامي التَّطورات، فكيف لا تؤثِّر حريَّة الفكر في العادات والأخلاق؟ وكيف تنفصل ترجمات آثار الشُّعوب الأخرى عن التَّأثير في المجتمع الذي يطلع عليها ويجد فيها أشياء لم يألفها ولم يعتد عليها؟! وكيف لا تؤثِّر الأخلاق والعادات الاجتماعيَّة والحالة الاقتصاديَّة في الحركة العلميَّة؟! أليست شبكةً متداخلةً تداخلاً يتعذَّر معه الفصل بينها؟

إنَّ محض التَّفكير في الحديث عن الحياة الاجتماعيَّة لفترةٍ تاريخيَّةٍ محدَّدة يوحي بمجموعةٍ من المسائل التي لا يمكن تجاوزها، وحديثنا على الحياة الاجتماعيَّة في عصر **الجاحظ** يثير لدينا جملةً من الموضوعات المهمَّة

(٤١). التوحيدي: **البصائر والذخائر**. ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

أبرزها التَّرف الذي وصلت إليه الحاضرة العباسيَّة في تلك المرحلة وما قاد إليه من تطوُّرات وتغيُّرات على مختلف صعد الحياة الاجتماعيَّة كانتشار ضروب اللهو والمتعة والمجون... كما يضع أمامنا انصراف بعضهم في تلك الحقبة إلى الزُّهد والتَّصوف، ولا ننسى الحديث في التَّوزع الطَّبقي لمجتمع الحاضرة العباسية آنذاك، وكذلك الأوضاع الاقتصاديَّة، والزَّندقة التي انتشرت وتفشَّت كثيراً آنها، إنَّها مسائل كثيرة تستحق الوقوف عندها ولو وقفة صغيرةً سنحاول فيما يلي كشف أهم معالمها.

أولاً: طبقات المجتمع

توزَّع أفراد مجتمع الحاضرة العباسيَّةِ في عصر **الجاحظ** بَيْنَ ثلاث طبقات رئيسة؛ عليا ووسطى ودنيا، وهذا التوزُّع لا يختلف عن أي توزُّع طبقيٍّ في أي مجتمعٍ من المجتمعات، أو حتَّى عن أي عصرٍ من العصور، ولكن الاختلاف هو في المنتمين إلى هذه الطَّبقات الذين يتفاوتون ويتباينون من مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى غيره، وعلى الرَّغْمِ من ذلك، فقد وجدنا اختلافا بَيْنَ المؤرِّخين في توزيع طبقات مجتمع هذه المرحلة فذهب **شوقي ضيف** إلى توزيعٍ شبيهٍ بالمبدأ الذي أدرجناه وقسَّم المجتمع إلى «ثلاث طبقات أساسيَّة: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدَّولة ورؤوس التَّجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفي الدَّواوين والتَّجار والصُّناع الممتازين، ثُمَّ طبقة دنيا تشتمل على العامَّة من الزرَّاع وأصحاب الحرف الصَّغيرةِ والخدم والرَّقيق، ويأتي في إثر تلك الطَّبقات أهل الذمَّة»[٤٢].

(٤٢). م. س. ص ٥٣.

أمَّا **شارل بللا** فذهب إلى أنَّ «التَّسلسل الاجتماعي في المدن المؤسسة حديثاً كالبصرة، والنَّاتج عن امتزاج مفهومين في الدِّين والجنس يحتوي على أربع طبقات أساسية:

أ ـ الفاتحون العرب ومواليهم القدامى.

ب ـ المسلمون الجدد من الأعاجم الذي اعتنقوا الإسلام.

جـ ـ غير المسلمين.

د ـ الرَّقيق.

على أن توسُّع البصرة الاقتصادي سبَّب تمازجاً اجتماعياً أدَّى إلى نشوء مجتمعٍ جديدٍ منظَّمٍ على أسسٍ مختلفةٍ، فقد غدت الثَّروة مقياس الرِّجال، ويمكننا منها تبيين أربع طبقات هي:

أ ـ الطَّبقة الارستقرطيَّة المؤلَّفة من العرب الأقحاح.

ب ـ الطَّبقة البرجوازيَّة المؤلَّفة من عناصر عربيَّة وأعجميَّة، مسلمة وغير مسلمة.

جـ ـ الشَّعب.

د ـ الرَّقيق[٤٣]».

والحق أن المستشرق الفرنسيَّ وإن أصابَ من حيث مبدأ التَّوزيع إلى حدٍّ بعيدٍ إلا أنَّهُ لم يصب عين الحقِّ في تفصيل هذه الطَّبقات، فنحن نخطِّئهُ أولاً في إفراد طبقةٍ خاصةٍ بالرَّقيق، لأنَّ الرَّقيق في الحاضرة العربيَّة الإسلاميَّة لم يكن شأنه شأن الحاضرة اليونانيَّة أو الرُّومانيَّة، وإنَّما كان للعبيد والإماء شخصيَّاتهم المستقلَّة وآراؤهم ومواقفهم التي تخوِّلنا إدراجهم، على أقلِّ تقديرٍ، ضمن الطَّبقة الدُّنيا، لا

(٤٣). شارل بللا: **الجاحظ**. ص ٣٠٣ـ٣٠٤.

يختلفون عن أفرادها في شيءٍ، هذا إن لم تكن لهم محاسن ومزايا أكثر، ودليلنا على ذلك ما وصل إليه كثيرٌ من العبيد والجواري من مكانةٍ وأهمِّيَّةٍ في الفنون والآداب خصوصاً، والثَّقافة الواسعة والعالية التي كانت تتثقَّفُ بها الإماء، و**شارل بللا** ذاته يتحدَّث عن أحوال الإماء في تلك الفترة ومن كثير ما قال فيهن «إنَّ تعليمهنَّ يشمل أولاً الخطَّ والنَّحو والشِّعر والغناء مما يظهر الفرق بينهن وبَيْنَ الحرائر الجاهلات، ويكسبهن جاذبية تحسُّ بها قلوب الرِّجال، وقيل إنَّ سعة علم إحداهنَّ كانت سبباً في استدعاء **المازني** اللغوي إلى البلاط في بغداد، وأخرى سألها **الأصمعي** بأمرٍ من **الرشيد** فأجابت السَّائل بثقةٍ حتَّى خُيِّلَ إليه أنَّها تقرأ الجواب في كتاب»(٤٤).

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنَّ التَّقسيم الأول **لشارل بللا** يخلو تماماً من الدِّقَّة وليس ثَمَّةَ ما يثبته على نحو ما قدَّمه، ولذلك نتحدَّث على التَّقسيم الثَّاني الأقرب إلى الصَّواب، ولعلَّ الخطأ الوحيد الذي وقع فيه هنا، ما عدا إفراد طبقة للرَّقيق، هو حصر الطَّبقة الأولى بالعرب الأقحاح، فإن كان ذلك في البصرة وحدها فهو صحيحٌ، وإن كان في عموم الحاضرة العبَّاسيَّة فهو خالٍ من المصداقيَّة وبعيد عن الصَّواب لأنَّ كثيراً من الولاة وذوي اليسار الكبار كانوا من غير العرب، وهذا مما بات في حكم الشَّائع والمعروف.

ومهما يكن من أمر ففي مكنتنا الخلوص إلى أنَّ المجتمع قد انقسم إلى طبقات ثلاث: الطَّبقة الأولى وهي العليا وتضمُّ السُّلطة السِّياسيَّة والعسكريَّة، بدءاً بالخلفاء فالأمراء والوزراء ثُمَّ قادة الجيوش والولاة وصولاً إلى كبار أعوان الدَّولة من أصحاب الإقطاعات ورؤوس التُّجار. والطَّبقة الثَّانية وهي الوسطى، وتضمُّ

(٤٤). شارل بللا: **الجاحظ**. ص ٣٣٩.

رجالات الفكر والعلم والدِّين والأدب والتُّجار وموظفي الدَّواوين ورجال الجيش والصنَّاع المهرة. وأخيرا الطبقة الدُّنيا، وتضمُّ عامَّةَ أفراد الشَّعب من صغار الكسبة والحرفيين والزرَّاع والخدم والرَّقيق. وغنيٌّ عن البيان أنَّ الطَّبقة العليا كانت تعيش سابحةً في بحرٍ من النَّعيم والتَّرف يشبه الأحلام أو يفوقها. فحاكوا الحالي من بدائع الوشي والمنمنم للبسهم، وشادوا روائع القصور والمنازل المحفوفة بالخضرة والأمواه وكلَّ ما يخطر بالبال من بواعث الجمال. وتفنَّنوا في أساليب اللهو وضروب الاستمتاع... حَتَّى حِيْكَتْ في ذلك قصصٌ نُسِبَتْ إلى هذه الحاضرة هي قصص ألف ليلة وليلة التي تصوِّر بأسلوبٍ مغرقٍ في الخيال، مبدع في التَّشويق والإثارة، رفاهيَّة هذه الطَّبقة وإنغماسها في النَّعيم واللهو وطلب اللذات ومدى يسار أحوالها.

أمَّا الطَّبقة الوسطى التي شَمَلَتْ أربابَ الفكرِ والعلم والغناء والأدب والشِّعر والدِّين والمعلمين وكثيراً من موظفي الدَّولة ورجالَ الجيش والصُّنَّاع المهرة، فقد تفاوتت أحوالهم وتباينت حَتَّى امتدت ما بَيْنَ ذوي اليسار الذين يدانون الطَّبقة العليا، وبَيْنَ الكفاية التي تكاد تُدْنِيْهِم من الطَّبقة الدُّنيا، وقد ارتبط ذلك بمدى ما يحقِّقونه من النَّجاح أو ينالهم من الإخفاق في التَّقرُّب من السُّلطة أو النَّجاح في ميادينهم.

«ومن هذه الطَّبقة أوساط الصنَّاع وخاصَّةً ممن كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطَّعام، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسَّجاجيد والنَّمارق والمقاعد والتُّخوت والوسائد. وكان مركز الصِّناعات الأسواق مثلها مثل التِّجارات، وكانوا، معظمهم، يتناولون غداءهم بمطاعم في أسواقهم أو دكاكينهم، وكانوا لا يتركونها إلا في المساء... وكان هناك جهابذةٌ كثيرون وإذا عرفنا أنَّهُ كان يسكن

بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرِّخين عرفنا كثرة ما كان بها من التُّجار والصُّناع، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفقةٍ واحدةٍ ألوف الدَّنانير، أما أوساطهم فقلَّما كان يزيد رأس أموالهم في تجاراتهم على ثلاثة ألاف دينار(٤٥). وكان النَّاس يودعون أموالهم لدى بعض التُّجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفةً في الأرباح. ونستطيع أن نتصوَّر مستوى المعيشة في بغداد مما يُروى أنَّ الأسرة كان يكفيها شهريًّا خمسة وعشرون درهماً، وكأنَّ نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهمٍ واحدٍ. وقد لا يصوُّر ذلك حياة الطَّبقة الوسطى تماماً، ولكنَّه يشير إلى أنَّ نفقاتها لم تكن كبيرةً، وكان يعدُّ من يقتني سبعمئة دينارٍ صاحب ثروةٍ كبيرةٍ، وكثير من الصنَّاع والتُّجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون في الطَّبقة الوسطى من الأمَّة»(٤٦).

أمَّا الطَّبقة الدُّنيا التي ضمَّت عامَّة أفراد الشَّعب فعلى عاتقها كانت تقوم أعباء العمل والإنتاج بمختلف صنوفه بدءاً من الزِّراعة مروراً بالصِّناعات الصَّغيرة وصولاً إلى الخدمة في كنف الأمراء والوزراء والأثرياء.

قد لا يكون للتَّفاوت في فُحْشِ الثَّراء عظيمَ الأثر وواضحه في تفاوت أنماط المعيشة ونوعيَّة متطلَّبات أصحابها ولا في كيفيَّة إرواء هذه الحاجات أو تلبية الرَّغبات، ولكن ذلك أمرٌ جدُّ مختلفٍ بالنِّسبة للطَّبقة الدُّنيا على وجه الخصوص، فصحيحٌ أنَّ هذه الطَّبقة كلَّها تعيش في حدود الكفاف إلا أنَّها متفاوتةٌ في مستويات المعيشة، تَبْعاً للتَّباين في مستوى

(٤٥) ـ هذا مما أورده الجاحظ في البخلاء نصًّا صريحاً أو مما يمكن أن يستدل به لاستنتاج مثل ذلك انظر مثلاً الصفحات: ٤٠، ٤٤، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٨.

(٤٦) ـ شوقي ضيف: **العصر العباسي الثاني** ـ ص ٦١ ـ ٦٢.

الـدُّخول ونوعيَّـة مـوارد الـرِّزق ومصـادرها، ولا نريـد أن نطيـل الحـديث في هـذه الطَّبقـة لأنَّـه يكفينـا أن نشـير إلى أنَّهـا كانـت تعـيش الكفـاف الـذي يـتراوح مـا بَـيْنَ تمـام الكفايـة الـدُّنيا وفضـول القليـل مـن الـدَّخل، وبَـيْنَ الإدقـاع والضَّـنك والبـؤس والشَّـقاء، وهـذا ممـا شـكَّل أحـد العوامـل الرَّئيسـة في دفـع أفـراد هـذه الطَّبقة إلى النِّقمة والتَّمرد حيناً كما ثورة الزنج والقرامطة.

ثانياً: البذخ والترف

ألمحنـا في مفتـتح هـذه الفقـرة إلى تفـنُّن أفـراد الطَّبقـة العليـا، وخاصَّـةً الخلفـاء والأمـراء والـوزراء، في ضـروب البـذخ والـتَّرفِ وفي مختلـف منـاحي الحيـاة وأنمـاط المعيشـة، والسَّـرَفَ في إغـداق الأمـوال علـى ذلـك ودواعيـه، ولعـلَّ أكثـر مـن تجسَّـد لديـه ذلـك وبـه كـان المبْتَـدَى هـو **المتوكـل** الـذي مـات **والجـاحظ** في سنةٍ واحدةٍ.

إنَّ الحديث في البذخ والتَّرف المسرف إلى حدٍّ لا يطيقه الفقير ويأنفه متوسِّط الحال ويشمئزُّ منه العاقل المفكِّر، أمرٌ يطول بنا جداً لأنَّ الأخبار في هذا الموضوع جدُّ كثيرةٍ يضيق المجال عن سردها أو عرض معظمها، ولذلك سنكتفي بأنموذجٍ واحدٍ نستجلي من خلاله مدى ما وصل إليه المبذِّرون الكبار من إسرافٍ مبالغٍ به في البذخ والتَّفج وحبِّ المباهاة.

أقام الخليفة **المتوكِّل** حفلاً بمناسبة إعذار (ختان) ابنه **المعتز**، فأمر وزيره **الفتح بن خاقان**، أن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصره (البركوار) الذي أقام فيه الإعذار، وأن يكون في طوله وعرضه، وكان طوله مئة ذراعٍ وعرضه خمسين. ووجد طلبه: بساطاً مُذَهَّباً مُبَطَّناً، يقال إنَّ التُّجار قَوَّموه بعشرة آلاف دينار. وبُسِطَ في الإيوان ووُضِعَ **للمتوكِّل** في صدره سرير، مُدَّ بَيْنَ يديه أربعة آلافَ مرفعٍ

(كرسيٍّ) مُذَهَّبَةٍ مُرَصَّعَةٍ بالجواهر، وعليها تماثيل العنبر والنَّدِّ والكافور، ومُدَّت الموائد وتغدَّى **المتوكل** والنَّاس، وجلس على السَّرير وأحضر الأمراء والقوَّاد والنُّدماء فَأُجْلِسُوا على مراتبهم، وجيء بأوعيةٍ مملوءةٍ دراهم ودنانير نصفين، صُبَّتْ فيها حَتَّى ارتفعت. ووزَّع الغلمانُ الشَّرابَ. ودعوا كلَّ من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يداه من ذلك المال. وكان النَّاس يجمعونه في أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم، وكلَّما خلا وعاءٌ مما فيه أتى الفرَّاشون بما يملؤه من الدَّنانير والدَّراهم حتَّى يعود كما كان. وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع، وحُمِلوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة، وأعتق **المتوكل** ألف رقبة، وأمر لكلِّ عتيقٍ بمئة درهمٍ وثلاثة أثوابٍ، وكان في صحن الدَّار بَيْنَ يدي الإيوان أربعمئة جاريةٍ بَيْنَ أيديهن أطباق الفواكه من كلِّ صنفٍ، وخمسة آلاف باقة نرجسٍ، وعشر آلاف باقة بنفسجٍ... ترفٌ لا يماثله ترف! ونثر **المتوكل** على هؤلاء الجواري وخدم الدَّار والحاشية عشرين مليون درهم، ونثرت زوجه **قبيحة أم المعتز** مليون درهمٍ على المزيِّن ومن كانوا في جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدَّار والخدم الخاصَّة من البيضان والسُّودان، **مالٌ ينفق ويبعثر من دون حسابٍ، وكأنَّما أمسك به سفهاءٌ، لا يعرفون حقوقاً لرعيَّةٍ ولا يقدِّرون مسؤوليَّةً**. وَحَضَرَ الحفل كثيرٌ من النُّدماء في مقدِّمتهم **ابن حمدون وابن نجم**، وكثيرٌ من الشُّعراء في مقدمتهم **الحسين بن الضَّحَّاك وعلي بن الجهم**، وكثيرٌ من المغنِّين في مقدِّمتهم **عمرو بن بانة وابن المكي وعثعث وسليمان الطبَّال وصالح الدَّفَّاف وزنام الزَّامر**، وكثيرٌ من المغنِّيات في مقدمتهنَّ **عَريب وبدعة** جاريتها و**شارية** وجواريها. ويقال إنَّه أنفق على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من

الدَّراهم!![٤٧] هذا في الوقت الذي كان فيه متوسِّط إنفاق الأسرة يقلُّ عن الدِّرهم الواحد في اليوم الواحد.

هذه واحدةٌ من قصصٍ لا حدود لضفافها، ولا حوافَّ لإفراطها، ولذلك لن نمضي في الحديث عن أمثالها سيَّان أفي إشادة القصور المفعمة الفخامة أم الملابس الفاحشة الوثار أم في المآكل والمشارب الغريبة التَّطرُّف فالقصَّة السَّالفة الذِّكر وحدها فيها الكثير مِمَّا يدل على مبلغ المبالغة في كلِّ ذلك وغيره مما كانت تعيشه السُّلطة ورجالاتها الكبار.

ثالثا : اللهو والمجون

مما يتَّصلُ بما سبق ويُلحق به الحديث على ما وصل إليه المجتمع من حالات اللهو والفسق والمجون والجواري والغناء وغير ذلك مما يدور في فلكه. ولقد أفاض **الجاحظ** ذاته في الحديث عن ذلك كلِّه.

أما اللهو فله ضروبٌ كثيرةٌ جلُّها مستحدثٌ في الحاضرة العربيَّة الإسلاميَّة، وهي من دواعي التَّرف التي تنشأ مع ازدهار العمران وتطوره كما يقول **ابن خلدون**، ولعلَّها تغدو من ضروريات الحياة المترفة، ولذلك لن نستفيض في عرضها ونقدها ونكتفي بالإشارة إلى أنواعها وخاصَّةً أيضاً أننا نفهمها في إطار مرجعيَّة تاريخيَّة محدَّدة لتفسير آلية التَّطور الحضاريِّ وتبلور العادات والأنماط الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة والنَّفسيَّة للتَّمدُّن والتَّحضُّر.

نَشَأَ في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والوزراء فنٌّ جديدٌ على الحاضرة العربيَّة الإسلاميَّة . لَعَلَّهُ لم يُعْرَفْ من قبل . هو فنُّ المحاكاة بالتَّمثيل الهزلي وارتبط بهما فنٌّ آخر من فنون التَّسلية قريبٌ من فنون الخِفَّة وقد حدَّثنا **أبو عثمان** عن ذلك فقال:

---

(٤٧) . م. س . ص ٦٧ . ٦٨.

«وفي النَّاس من يحرِّك أذنيه من بَيْنَ سائر جسده، وربَّما حرَّك إحداهما قبل الأخرى، ومنهم من يحرِّك شعر رأسه، كما أنَّ منهم من يبكي إذا شاء، ويضحك إذا شاء.

وخبَّرني بعضهم أنَّه رأى من يبكي بإحدى عينيه، وبالتي يقترحها عليه الغير، وحكى المكِّي عن جَوَارٍ باليمن لهنَّ قرون مضفورة من شعر رؤوسهن، وأنَّ إحداهن تلعب وترقص على إيقاعٍ موزونٍ، ثُمَّ تُشخِصُ قرناً من تلك القرون، ثُمَّ تلعب وترقص، ثمَّ تُشخِصُ من تلك الضَّفائر المرصَّعة واحدةً بعد أخرى، حتَّى تنتصب كأنَّهَا قرونٌ أوابدُ في رأسها.

ويحاول **الجاحظ** تحليل هذا الفعل بوصفه ظاهرةً طبيعيَّةً أو علميَّةً فيقول: «فقلت له: فلعلَّ التَّضفير والتَّرصيع أن يكون شديد الفتل ببعض الغسل والتلبيد، فإذا أخرجته بالحركة التي تثبتها في أصل تلك الضفيرة شخصت، فلم أره ذهب إلى ذلك، ورأيته يحقِّقه ويستشهد بأخيه»[٤٨].

ومن ضروب اللهو الكثيرة التي حدَّثنا **الجاحظ** عنها أيضاً، الاجتماع لمشاهدة نطاح الكباش ومناقرة الدِّيَكَةِ وتواثب السِّباع والفيلة وغير ذلك من الحيوانات المدرَّبة وسباق الخيل واللعب بالصَّولجان. وكذلك الشطرنج والنرد والقمار والرهان، والخروج للصيد والقنص، من دون أن يفارقهم الولع بالمرح والتندُّر في كلِّ ذلك، ومن طريف الأخبار في هذا المجال أنَّه «خرج **المهدي** إلى الصَّيد ومعه **علي بن سليمان وأبو دلامة**، فَرَمَى **المهديُّ** ظبياً فصاده، ورمى **علي بن سليمان** فاصطاد كلباً، فقال **أبو دلامة**[٤٩]:

---

(٤٨) ـ الجاحظ: **الحيوان**. ج ٦ . ص٤٦٦ . ٤٦٧.

(٤٩) ـ الأبيات جدُّ مشتهرة، موجودة في ديوانه، وقد ذكرها معظم مؤرخي الأدب العربي، انظر مثلاً ابن قتيبة: **الشعر والشعراء**. ص٥٢٤.

قَدْ رَمَى المَهْدِيُّ ظَبْياً شَقَّ بِالسَّهْمِ فُؤَادَهُ
وَعَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ رَمَى كَلباً فَصَادَهُ
فَهَنِيئاً لَهُمَا كُلُّ امرِئٍ يَأْكُلُ زَادَهُ

أما المجون فقد كانت البساتين حول سامرَّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسَّماع، وكان الشُّعراء والنَّاس، يختلفون إليها، وقد يختلفون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتَّخذون منها لأنفسهم حانةً، يشربون فيها على أزهار الرِّياض وأبصارهم تتملَّى بجمال الجواري، وآذانهم تستمتع بالسَّماع، وكثيراً ما صوَّر الشُّعراء هذا الإمتاع المضاعف بجمال الطَّبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول **البحتري**(٥٠):

إِشْرَبْ عَلَى زَهْرِ الرِّياضِ يَشُوبُهُ
زَهْرُ الخُدُودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْبَاءِ
مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسِي الهُمُومَ وَتَبْعَثُ
الشَّوْقَ الَّذِي قَدْ ضَلَّ فِي الأَحْشَاءِ

ولم يتوقَّف المجون عند هذا الحدِّ بل تجاوزته الخاصَّة والعامَّة إلى الافتنان فيه وفي أنواعه حَتَّى وَصَلَ إلى حدٍّ جدٍّ ممجوج ونابٍ عن الذَّوق الأخلاقيِّ، يكاد، فيما يصوِّر **الجاحظ** وغيره . لا يخلو منه شارع، وما أكثر الأشعار والنكت والأخبار المفرطة في الإباحيَّة الجنسيَّة التي تصوِّر هذا الوضع ولا يسمح بنا المقام البتة إلى عرض بعضها. وطفح الكيل أكثر باستشراء آفة حبِّ الغلمان حبًّا جنسيًّاً، وقد أفرد **الجاحظ** رسالة خاصة للحديث عن الفرق بَيْنَ الغلمان والجواري وخاصَّةً من النَّاحية الجنسيَّة

(٥٠). الأبيات من قصيدة طويلة للبحتري تقع في خمسة وستين بيتاً، وهي أولى قصائد ديوانه.

وأتخمها بالنُّكت المتطرِّفة في إباحيتها وملأها بمزايا الغلمان المرْدِ ومفاخرة المغرمين بهم بهذه المزايا، ولما تولَّى **المهتدي** الخلافة «همَّ بحمل النَّاس على الحقِّ والأخلاق، فحرَّم الشَّراب ونَهَى عن القيان والسَّماع إليهن، غير أن العامَّة والخاصَّة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتَّى قتلوه بعد سنةٍ واحدةٍ من خلافته. ولما جاء **المتَّقي** ليصنع صنيعه بأواخر ذلك العصر لقي المصير ذاته»[٥١].

إنَّ الحديث في الحياة الاجتماعيَّة في هذا العصر أمرٌ يطول بنا، فما زلنا حَتَّى الآن لم نتحدَّث عن الجواري والغناء والأخلاق والزُّهد والتَّصوف والزَّندقة والحياة الدِّينيَّة، وكلُّها أمورٌ مترابطةٌ متلازمةٌ، وإن كنَّا قد وقفنا على قبائح هذا العصر فإننا لا نعني خلوَّه من المحاسن، ولكن الأعم والأشمل هو سيطرة روح التَّحضُّر والتَّمدُّن والانخراط بعجلة الحياة السَّريعة المتغيرات، الكثيرة المعطيات، ولا شكَّ في أنَّ للازدهار الحضاري بمختلف حواملة الفكريَّة والعلميَّة والفنيَّة ضريبةً لا بُدَّ من دفعها، ولو قارنَّا سالف حضارتنا في عزِّ أمجادها مع الحضارة الأوروبيَّة والحضارة الأمريكيَّة المعاصرتين لما وجدنا أيَّ فرقٍ يذكر من النَّواحي الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والأدبيَّة والفنيَّة إلا اللهم فارق الزَّمن ودلالاته وخصوصيَّة المجتمع/ الأمَّة. ولا نعارض في أن تكون هذه المقارنة ضرباً من تسويغ هذا النُّشوز والانحراف لا دفاعاً عنه، فالحرام حرام ولو فعله كلُّ الأنام، والخطأ خطأ في أيِّ زمانٍ ومكانٍ، وتسويغ الخطأ أو فرضه بسلطة أو بأخرى ليس يعني تحوَّله إلى حقٍّ أو صوابٍ.

(٥١). شوقي ضيف: **العصر العباسي الثاني**. ص ٩٧.

آثاره[٥٢]

اختلف المؤرخون في عدد كتب **الجاحظ**، بل ولم يتفقوا على عناوين بعضها، ففي حين أن صاحب المؤلفات ذاته سردها لنا في مقدمة كتابه (الحيوان) فكانت نحو (٣٦) كتاباً، فإن الأقوال الأخرى للمؤرخين قد تباينت تبايناً شديداً تراوح ما بين المئة والمئتين، فالذي كتب عن **الجاحظ** في الموسوعة الإسلامية رأى أنَّه خلف ما ينوف عن (٢٠٠) أثراً، اكتشف منها (٥٠) صحيحة النسبة، ومعها (٣٠) ما بين الموثوق منها والمشكوك فيها[٥٣].

وكان **ابن النديم** قد أحصى هذه الآثار ووضع ثبتاً بما يناهز (١٢١) أثراً. وتبعه **ياقوت الحموي** فأوصلها إلى نحو (١٢٣). ثم جاء **حسن السندوبي** الذي اهتم بشخص **الجاحظ** وفكره وآثاره ووضع قائمة بمؤلفات **الجاحظ** اعتمد فيها بصورة أساسية على **ياقوت الحموي**، وطبع هذه القائمة في كتابه أدب **الجاحظ**، وعقبه **بروكلمان** في كتابه تاريخ الأدب العربي فأورد حوالي (١٧٦) كتاباً اعتمد فيها على الذين سبقوه.

وكانت المحاولة الأخيرة بهذا الصدد تلك التي اضطلع بها **شارل بللا** بعنوان «محاولة كشف نتاج **الجاحظ**» وهي مقالة نشرها في مجلة «أربيكا» العدد الثالث

---

(٥٢) ـ من الجدير ذكره هنا هو أنَّ هذه الآثار بالمعلومات المذكورة لها مقتصرة على ما كان في مطالع عام ١٩٩٤م فترة مناقشة هذا الكتاب بوصفه جزءاً من أطروحتي لنيل الماجستير في الفلسفة، ويمثل هذا الكتاب ثلث الأطروحة تقريباً، إذ صدر الثلث الأول عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ٢٠٠٥م، بكتاب حمل عنوان: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ،، ويصدر، إن شاء الله، الثلث الثالث بالتزامن مع هذا الكتاب.

(٥٣). Encyclopedia of Islam. vo.2, p. 386.

سنة ١٩٥٦، وقد استفاد فيها من المحاولات السابقة . عدا فهرست **ابن النديم** . وبشكل خاص من **بروكلمان** كما يعترف هو ذاته، ووصل لديه العدد إلى (١٩٣) أثراً[٥٤].

والحقُّ أنَّ هذه مهمَّةٌ شاقَّةٌ وعسيرة، ولا أظنُّني أستطيع، في أفقي الراهن، أن أضيف إلى جهود هؤلاء الباحثين الأجلَّة شيئاً في هذا الصدد، ولأن كشَّافاً بآثار **الجاحظ** موجود في أكثر من موضع فإنَّه من غير المفيد أن نكرر هذا الثبت هنا، ولاسيما أن القسم الأعظم منه غير مكتشف حتى الآن، ولذلك نظن أنه من الأجدى والأجدر أن نقتصر على ما طبع من آثار **الجاحظ** تاركين ما ثبت نحله له مع تمهيد بسيط عن أهمية هذه الآثار ومكانتها.

بلغت كتب **الجاحظ** من الشأو والشهرة، وحتى المكانة والأهمية، ما لم تبلغه جلُّ كتب الأقدمين، من سابقيه ومعاصريه واللاحقين عليه، ولحسن حظِّه فقد شهد على ملء عينه هذا الازدهار والانتشار والرواج لكتبه، والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة ولكن لن نطيل في ذكرها، وحسبنا منها شاهد من خصم، وقصة حدثت مع **الجاحظ** ذاته[٥٥].

يقول **المسعوديُّ**، الذي يعدُّ من خصوم **الجاحظ**، في نعت كتبه:« وكتب **الجاحظ** مع انحرافه المشهور[٥٦]، تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنَّه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ،

---

(٥٤) . انظر ذلك في الملحق الذي ترجمه الدكتور علي أبو ملحم وطبعه كملحق في الرسائل الكلامية للجاحظ . ص٣٩.

(٥٥) . الشاهدان التاليان من مقدمة عبد السلام هارون لكتاب الحيوان . ج١ . ص ١١ / ١١.

(٥٦) . يريد ما كان عليه الجاحظ من الاعتزال وعداوة الشيعة، وكان المسعودي شيعياً.

وكان إذا تخوَّف ملل القارئ، وسآمة السامع، خرج من جدٍّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة. وله كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنَّه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين والبخلاء، وسائر كتبه في نهاية الكمال، ما لم يقصد منها إلى نصب».

وإليك صورة تنبيك عن مبلغ ذيع كتب **الجاحظ**، وتقفُك على مقداره: روى **الخطيب البغدادي** في كتابه تاريخ بغداد (١٢: ٢١٤) وكذلك **ياقوت الحموي** في معجم الأدباء (٦: ٦٥) عن **يحيى بن علي** أنَّه قال: حدثني أبي قال: قلت **للجاحظ**: إني قرأت في فصل من كتابك المسمى البيان والتبيين: إن ممَّا يستحسن من النساء اللحن في الكلام، استشهدت ببيتي **مالك بن أسماء**:

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا
يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوْزَنُ وَزْناً

مَنطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَاناً
وَخَيْرُ الحَدِيْثِ مَاكَانَ لَحْناً

قال: هو كذلك. قلت: أفما سمعت بخبر **هند بنت أسماء بنت خارجة** مع **الحجاج**، حين لحنت في كلامها، فعاب ذلك عليها فاحتجَّت ببيتي أخيها، فقال لها: إنَّ أخاك أراد أنَّ المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر، لتستر معناه وتورِّي عنه، وتُفْهِمَهُ من أرادت

بالتَّعريض، كما قال الله تعالى: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِيْ لَحْنِ القَوْلِ}[٥٧] ولم يرد الخطأ من الكلام.

والخطأ لا يستحسن من أحد؟! فوجم **الجاحظ** ساعة ثم قال: لو سقط إليَّ هذا الخبرُ لما قلتُ ما تقدَّم فقلت له: فأصلحه: فقال: الآن وقد سار الكتاب في الآفاق!! هذا لا يُصْلَح!

أما آثار **الجاحظ** المطبوعة فقد أحصينا منها (٥٥) أثراً مؤكَّد النسبة له، وهذا مسردٌ لها. ذاكرين عدد طبعاتها وأهمها. معرضين عن تبيان المصادر القديمة التي ذكرت فيها لأنَّ ذلك لن يقدِّم أو يؤخر في شيءٍ بَعْدَ ثُبُوتِ نسبتها إليه ، تاركين بعض الآثار الثابت نحلها إلى مفكرنا مثل التاج في أخلاق الملوك وتهذيب الأخلاق والأمل والمأمول.

١ . **استحقاق الإمامة**: طبعت هذه الرسالة مرَّات عدَّة مجموعة مع رسائل أخرى، مثل مجموعة عبد السلام هارون ومجموعة علي أبو ملحم ومجموعة عمر أبو النصر المسماة بآثار الجاحظ.

٢ . **استنجاز الوعد**: طبعت هذه الرسالة في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٣ . **الأوطان والبلدان**: رسالة، طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٤ . **البخلاء**: هذا الكتاب من أهم كتب الجاحظ وأذيعها انتشاراً وتداولاً بين الناس منذ أيام الجاحظ وحتى الآن، ونظرا لهذا الرواج الكبير فقد وجد ترحيباً كبيراً في دور النشر، فطبع لذلك مرَّات عديدة قاربت العشرين طبعة، وتعاقب على شرحه وتحقيقه كثير من المفكرين المختصين والمهتمين بفكر الجاحظ وغيرهم ممن لم يذكر اسمه، ومن

(٥٧) . القرآن الكريم . سورة محمد . الآية ٣٠.

أهم هذه التحقيقات التي قام بها محمد مسعود في عام ١٩٠٥م وصدر عن مطبعة الجمهورية بالقاهرة في العام ذاته، ثم عني بضبطه وشرحه وتصحيحه أحمد العوامري وعلي الجارم في طبعة صدرت عن وزارة المعارف بالقاهرة عام ١٩٣٨م. وتتالت بعد ذلك تحقيقات وشروحات وتعليقات كثيرة لهذا الكتاب صدرت في طبعات مختلفة منها طبعة طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨. وطبعة فوزي عطوي، الشركة اللبنانية، ١٩٦٩. وغيرهم كثير.

٥ . **البرصان والعرجان والعميان والحولان**: طبع أكثر من طبعة من تحقيق محمد مرسي الخولي وهارون كلٌّ على حدة. عن مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٢ و١٩٨١ وعن دار الجيل، بيروت عام ١٩٩٠,

٦ . **البغال**: أو رسالة في البغال، طبع في كتاب مستقل تحت عنوان القول في البغال، وقد عني بتحقيقه وإخراجه شارل بللا، صدر عن دار مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة عام ١٩٥٦م، وأعاد شرحه والتقديم له الدكتور محمد علي أبو ملحم في طبعة أصدرتها دار مكتبة الهلال ببيروت عام ١٩٩٠م، وطبع مضموناً إلى رسائل أخرى للجاحظ في مجموعة هارون ومجموعة عبد الأمير مهنا.

٧ . **البلاغة والإيجاز**: وهي رسالة صغيرة اقترنت باسم رسالة في البلاغة والإيجاز أو رسالة البلاغة والإيجاز. طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٨ . **بني أميَّة**: أو رسالة في بني أميَّة، طبعت في مجموعة عمر أبو النَّصر.

٩ . **البيان والتبيين**: وهو في نظر النُّقَّاد إمام كتب الجاحظ وأهمُّها غير منازع، ولهذا الاعتبار فقد لقي عناية خاصَّة من الباحثين والناشرين،

فصدر حتى الآن فيما يزيد عن طبعات عشر مختلفة، أولها التي أخرجتها المطبعة العلمية بالقاهرة عام ١٨٩٣م. ثم عني الباحثون بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه، أمثال جميل جبر ببيروت ١٩٥٩م في مجلد واحد، وفوزي عطوي في ٣ مجلَّدات عن دار صعب، بيروت، ١٩٦٨، وهارون في أربعة أجزاء بمجلدين عن لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٩م، ودار الجيل ١٩٨٠م ومكتبة الخانجي ١٩٨٥م. وميشال عاصي في مجلد واحد عن مكتبة سمير، بيروت١٩٧٠م. هذا إلى جانب طبعات أخرى كثيرة مغفلة من المحقق كطبعة دار الفكر للجميع في ٣ مجلَّدات، عام ١٩٦٨م وغيرها، وقد اختصر هذا الكتاب غير مرَّة ونشرت فقرات ومنتخبات منه إمَّا مستقلة في كتاب أو ملحقة مع عدد من الرسائل.

١٠ . **التبصر بالتجارة:** كتاب عني بتحقيقه حسن حسني عبد الوهاب، صدر عن دار الكتاب اللبناني بيروت عام ١٩٦٦م.

١١ . **التربيع والتدوير**: يعدُّ هذا الكتاب الرسالة من أبدع الآيات الجمالية في النثر العربي على الإطلاق، واحد من أروع رسائل التهكم والهجاء في تاريخ الأدب العربي، فطبع لذلك مع هذه الرسائل في طبعة واحدة تحت عنوان ثلاث رسائل في الهجاء هي إلى جانب التربيع والتدوير؛ مثالب الوزيرين والرسالة الهزلية لابن زيدون، صدرت عن دار القلم، الكويت، ١٩٨١م. وأولى طبعات هذا الكتاب هي التي قدَّمتها مطبعة الجمهور عام ١٩٠٦م، وبعد تسع وأربعين سنة حقَّقه شارل بللا وأصدره عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق،

وأعاد فوزي عطوي تحقيقه وإصداره في مطبعة جديدة عام ١٩٦٩م عن الشركة اللبنانية للكتاب، وضمَّه مؤخراً أبو ملحم إلى مجموعته في طبعة جديدة.

١٢ . **تفضيل البطن على الظّهر**: رسالةٌ طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

١٣ . **تفضيل النُّطق على الصَّمت**: رسالة طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

١٤ . **الجدُّ والهزل**: أو رسالة في الجدِّ والهزل، طبعت في كتاب مستقل تحت عنوان فلسفة الجدِّ والهزل، بشرح محمد علي الزعبي عن منشورات حمد بيروت. وصدرت ضمن أكثر من مجموعة من رسائل الجاحظ هي مجموعات هارون وأبو ملحم ومجموعة كراوس والحاجري، ومجموعة مهنَّا.

١٥ . **الجوابات في الإمامة**: طبعت هذه الرِّسالة ضمن مجموعة علي أبو ملحم.

١٦ . **الحاسد و المحسود**: طبعت هذه الرسالة في مجموعتي هارون وأبوملحم.

١٧ . **الحجاب**: طبعت هذه الرسالة مع معظم مجموعات رسائل الجاحظ، وهي مجموعة هارون ومجموعة أبو ملحم ومجموعة أبو النَّصر ومجموعة مهنَّا.

١٨ . **حجج النُّبُوة**: طبعت هذه الرسالة في مجموعات هارون وأبو ملحم وأبوالنَّصر.

١٩ . **الحكمين وتصويب علي بن أبي طالب**: طبعت في مجموعة علي أبو ملحم.

٢٠ . **الحنين إلى الأوطان**: طبعت هذه الرسالة في مجموعات هارون ومهنا ودار الثقافة وقد صدرت لأول مرة في كتاب عن مطبعة المنار بالقاهرة عام

١٩١٥م، بعناية طاهر الجزائري، وصدر ببيروت عام ١٩٨٢ عن دار الرائد العربي.

٢١ : **الحيوان:** وهو الكتاب الأشمل والأضخم من كتب الجاحظ وله أهمية كبرى على صعد مختلفة، لاقعناية معظم المهتمين بتحقيق تراث الجاحظ وطبع طبعات مختلفة تراوحت بين ٣ مج و٨ مج، منها طبعة عبد السلام هارون الصادرة عن البابي الحلبي ١٩٤٥م وعن المجمع العلمي العربي ببيروت ١٩٥٠م وفي القاهرة ١٩٨٠م وعن دار الجيل ١٩٨٠. وكذلك طبعة فوزي عطوي الصادرة ما بين بيروت ودمشق عام ١٩٧٨م و ١٩٨٠م و١٩٨٢. وهذا الكتاب هو ثاني الكتب المطبوعة للجاحظ فقد صدرت في طبعته الأولى عن المطبعة الحميدية عام ١٩٠٤م ثم عن دار التقدم عام ١٩٠٧م. إلى جانب بعض الطبعات الأخرى.

٢٢ . **خلق القرآن:** رسالة طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٢٣ . **الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير:** طبع في حلب عام ١٩٢٨م عن المطبعة العلمية.

٢٤ . **ذمُّ أخلاق الكُتَّاب:** طبعت هذه الرسالة اللطيفة في جل مجموعات رسائل الجاحظ. فهي موجودة في مجموعات كل من هارون وأبو ملحم وأبو النصر ومهنَّا والثقافة ويوشع فنكل.

٢٥ . **الردُّ عل المشبِّهة:** رسالة كلامية طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٢٦ . **الرَّد على النَّصارى:** طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم وأبو النصر ويوشع فنكل.

٢٧ . **رسالة إلى أبي الفرج:** طبعت ضمن مجموعات هارون وأبوملحم ومهنَّا.

٢٨ . **سلوة الحرِّيف بمناظرة الربيع والخريف:** رسالة صدرت في كتاب عن دار الرائد العربي ببيروت عام ١٩٨٢، وصدر لأوَّل مرة في عام ١٩٠٢م بيروت مضموناً إلى رسالة أخرى مناظرة بالعنوان لأبي بكر محمد عارف المكِّي وهي: مسامرة الصيف بمفاخرة الشتاء والصيف، ولعل هذه الرسالة هي أول الآثار المطبوعة للجاحظ.

٢٩ . **الشارب والمشروب:** صدرت هذه الرسالة ضمن ثلاث مجموعات من رسائل الجاحظ هي مجموعات هارون وأبو ملحم وأبو النَّصر.

٣٠ . **صناعة القوَّاد:** طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم وأبو النصر وعبد الأَمير مهنَّا.

٣١ . **صناعة الكلام:** أو في صناعة الكلام وقد أضيفت لها لفظة رسالة أيضاً طبعت في مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٣٢ . **طبقات المغنِّين:** طبعت ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٣٣ . **العباسية:** طبعت هذه الرسالة في مجموعتي أبو ملحم وأبو النصر.

٣٤ . **العثمانية:** كتاب حققه وشرحه عبد السلام محمد هارون وطبعه عام ١٩٥٥م، وصدر في طبعة جديدة عن دار الجليل عام ١٩٩١م. وطبع ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٣٥ . **الفتيا: أو رسالة الفتيا:** طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنا.

٣٦ . **فخر السودان على البيضان:** رسالة طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنا.

٣٧ . **فصل ما بين العداوة والحسد:** طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنَّا والثقافة.

٣٨ . **فضل هاشم على عبد شمس:** رسالة طبعت ضمن مجموعتي أبو ملحم وأبو النصر.

٣٩ . **القيان:** طبعت هذه الرسالة الطريفة ضمن جل مجموعات رسائل الجاحظ وهي مجموعات هارون وأبو ملحم وأبو النصر ومهنا ويوشع فنكل والثقافة.

٤٠ . **كتمان السر وحفظ اللسان:** وهذه الرسالة قد طبعت أيضاً ضمن معظم مجموعات رسائل الجاحظ وهي مجموعة هارون ومجموعة أبوملحم ومجموعة كراوس والحاجري ومجموعة مهنَّا ومجموعة الثقافة.

٤١ . **المحاسن والأضداد:** كتاب جميل طبع لأوَّل مرة عام ١٩١٢م في المطبعة الجمالية بالقاهرة، بتصحيح محمد أمين الخانجي، ثم عني بتحقيقه فوزي عطوي وأصدره في عام ١٩٦٩م عن الشركة اللبنانية للكتاب.

٤٢ . **مدحُ التُّجَّار وذمُّ عمل السلطان:** طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعة علي أبو ملحم.

٤٣ . **مدحُ النبيذ وصفةُ أصحابه:** طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٤٤ . **المسائل والجوابات في المعرفة:** رسالة كلامة طبعت ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٤٥ . **المعاش والمعاد:** رسالة في الأخلاق طبعت ضمن مجموعات هارون، وأبو ملحم، وكراوس والجابري، ومهنَّا.

٤٦ . **المعلمين:** طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٤٧ . **مفاخرة الغلمان والجواري:** طبعت ضمن مجموعات هارون وأبوملحم ومهنَّا.

٤٨ . مقالة الزيدية والرافضة: طبعت ضمن مجموعة هارون.

٤٩ . مناقب الترك: طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنَّا.

٥٠ . المودَّة والخلطة: طبعت ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٥١ . النابتة: طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنَّا.

٥٢ . النبل والتنبل وذم الكبر: طبعت ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

٥٣ . النساء: طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم وأبو النصر.

٥٤ . نفي التشبيه: أو في (نفي التشبيه) طبعت ضمن مجموعات هارون وأبو ملحم ومهنَّا.

٥٥ . الوكلاء: طبعت ضمن مجموعتي هارون وأبو ملحم.

الفصل الثاني

فلسفة الضحك عند الجاحظ

فضائل الضَّحك

وظائف الضَّحك

مواضع الضَّحك

ضرورة التنويع في التأليف

الضحك شيء في أصل الطِّباع وفي أساس التركيب، لأنَّه أوَّل خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علَّة سروره ومادَّة قوته[٥٨].

الجاحظ

يصف الدكتور **عبد الكريم اليافي** الضَّحك فيقول: «في الضحك يتشنج الحجاب الحاجز تشنجاً عفوياً، ويتقطَّع التَّنفُّسُ على شكل دفعات زفيرية متسلسلة مصوِّته تتخلَّلها فترات من الشهيق، ويزداد الضغط الرئوي الداخلي، وإذا اشتدَّ الضَّحك عاق الدورة الدموية في الرئتين، فاحتقن العنق والوجه. ويرافق الضحك تقلص في عضلات الوجه، وتكاد تشترك جميع ملامح الوجه فيه. فالفم ينفرج قليلاً أو كثيراً، والصامغان، أو ملتقيا الشفتين، ينسحبان في الجانبين إلى خلف وإلى أعلى. وعند بعض الناس لا تنتهي ألياف العضلة الضاحكة جميعها إلى الصامغين حيث ترتكز عليهما عادة. بل يقف بعضها في طريقه فيرتكز على

(٥٨). لهذا الفصل مجتزأ من كتابنا التهكم وفن والإضحام عند الجاحظ الذي يصدر بالتزامن مع لهذا الكتاب إن شاء الله.

جلد الخدِّ فتحصل عند الابتسام غينةٌ[٥٩] في الخدِّ على حين تنفرج الشفتان قليلاً، وهو أخفُّ درجات الابتسام وألطف أشكاله لأنَّه لا يكاد يبدِّل خط الفم المتموج.

وعدا الفم يرتفع الخدَّان وتتسع صفحة الوجه وكأنَّ الوجه يتناقص طولاً، ويرتسم على الخدِّ لارتفاعه خطَّان أو غضنان[٦٠] أحدهما يصل بين جناح الأنف والصامغ والثاني وراءه ينتهي ببعض الغضون الدقيقة في مؤخر العين.

ويبرز الأنف إلى الأمام وإلى الأسفل. وربَّما كان بروزه ناشئاً عن تخلُّف الخدَّين إلى الوراء والأعلى، وينبسط المنخران قليلاً إلى الجانبين، وتتشكَّل لدى بعض الناس على ظهر الأنف خطوط عمودية.

وتلمع العينان لمعاناً خاصَّاً زائداً وتصغران قليلاً وتتطاولان حتى يكاد البياض فيهما يحتجب وحتى لا يكاد يبدو غير القسم الملون منهما، غير إنسان العين. وتنبسط أسارير الجبين حتّى أصبح هذا التعبير في اللغة من باب الكناية دالاً على الإبتهاج. وأحياناً تشترك الأذنان في الضَّحك فتتحرَّكان قليلاً»[٦١].

بهذا الكلام الرَّشيق، والحبك الأنيق، والسبك الدقيق، وصف لنا أستاذنا **اليافي** مظاهر الضَّحك، هذه الظاهرة الفيزيولوجية الطبيعية، الاجتماعية

---

(٥٩) . الغينة:هكذا أَوردها الدكتور عبد الكريم اليافي ، وهي خطأٌ صريح إذ المقصود بها الغنبة و هي ما ندعوه الغمَّازة بالعامية، والصامغان طرفا الشفتين.

(٦٠) . هذه الغضون تسمَّى أيضاً الضفاريط، وهي كسورٌ بين الخدِّ والأنف وعند اللحاظين. واحدها ضفروط، وكذلك الضفاريط. وهي الفاظ ليست رشيقة، ولذلك قلَّ استخدامها.

(٦١) . د. عبد الكريم اليافي: **دراسات فنية في الأدب العربي** . ص ٧٢ / ٧٣.

الأساس، ولا نعدُّ الأساس اجتماعياً صرفاً بالمعنى الاصطلاحي للاجتماعي وإنَّما نُدرجُ فيه جوانب لا غنى عنها لتبلور المضمون الاجتماعي كالجانب الأخلاقي والجانب النفسي والجانب الجمالي والفني.

وهذا ما سنعرض له في الفصل القادم. على أنَّ المطلب اللازب الآن يتجلى في الكشف عمَّا يكاد يُجمع عليه المفكرون . منذ القديم . من اعتبار الضحك خاصيَّة بشرية محضة «فقالوا عن الإنسان: إنَّه حيوان ضاحك تعريفاً له بالجنس القريب والخاصة اللازمة له بالقوة. ولما جاء **برجسون** قال: إننا لا نضحك إلا من الإنسان ومن أموره الإنسانية، فلا نضحك إلا فيما هو إنساني»[٦٢] والحقُّ أنَّ هذا ما لم يفت مفكرنا الذي ذهب إلى أن الضحك «شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علَّة سروره ومادة قوَّته»[٦٣].

إنَّ هذه الظاهرة البشرية التي يعدها **الجاحظ** جزءاً من جبلَّة الإنسان وإن كانت عضوَّية الآليةِ فإنَّها ذات مناحٍ متبادلة التأثر والتأثير فهي كما ألمحنا إنما تحدث بعلَّةٍ اجتماعية: أخلاقية، نفسية، فنية... ولكنَّها في الوقت ذاته تؤثر في هذه الجوانب ذاتها بانقلاب العلَّة إلى نتيجة، كذلك؛ وكما أنَّ الضحك نشاط عضوي أو فيزيولوجي فإنَّه يؤثر أيضاً في هذه العضوية من حيث تنشيطها وبثُّ مزيد الحيوية فيها. وقد عالج مفكرنا هذه المسائل وأشباهها بين طيات كتبه وهذا ما سنحاول تبيانه فيما يلي:

---

(٦٢) . د. عبد الكريم اليافي: **دراسات فنية في الأدب العربي** . ص ٥٣٦.

(٦٣) . الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٨.

فضائل الضَّحك

يكفي أن نعلم أنَّ الضحك من دوال الفرح والسرور والغبطة والسعادة والهناء حتى نقف على فضائله، فهو بهذا المعنى نقيض الحزن والأسى والألم واللوعة والمرارة... وهذا ما جلاه **أبو عثمان** الذي أطنب في الحديث عن محاسن البكاء ومساوئه وآثاره في الإنسان لينتقل من خلالها إلى فضائل الضحك وفوائده فيقول: «وأنا أزعم أنَّ البكاء صالحٌ للطبائع، ومحمود المغبَّة[٦٤]، إذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ولم يعدِل عن الجهة، ودليلٌ على الرِّقة والبعد من القسوة... وإذا كان البكاء، وما دام صاحبه فيه فإنَّه في بلاء، كذلك، فما ظنُّك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه. ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك، وقبيحاً من المضحك، لما قيل للزهرة والحِبْرَة والحَلي والقصر المبني: كأنَّه يضحك ضَحِكاً»[٦٥] ويرقى **الجاحظ** بالضحك من حيث الأهمية إلى حد موازاته بالحياة مقابل مقابلة البكاء بالموت، وليضفي على الضّحك، من ثمَّ، صبغة جمالية ونفحة إلهية يشتقُّها من شاهده القرآني الذي انطلق منه عندما قال: «وقد قال الله، جلَّ ذكره: {**وأنَّه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا**}[٦٦] فوضع الضَّحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت، وإنَّه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ولا يمنُّ على خلقه بالنقص. وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيء

---

(٦٤). المغبَّة: غِبُّ الأمر ومغبَّته: عاقبته وآخره. وغَبَّ الأمر: صار إلى آخره؛ وكذلك غَبّت الأمور إذا صارت إلى أواخرها. ويقال: لهذا الأمر مغبَّة طيبة أي عاقبة.

(٦٥). الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٨/١٧.

(٦٦). القرآن الكريم. سورة النجم. الآية ٤٣.

في أصل الطباع وفي أساس التركيب؛ لأنَّ الضَّحك أوَّل خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علَّة سروره ومادَّة قوَّته»(٦٧).

ويؤكد **أبو عثمان** أنَّ حديثه في فضائل الضّحك ومحمود خصاله وجمِّ فوائده ليس انطباعاً فردياً أو شخصياً، وإنما هو أمر جدُّ شائع بين الناس ومتداول منذ القديم القديم، حتى بدا ذلك جليّاً في مفردات اللغة التي انطبعت بطبائع أصحابها. فاشتقوا من الضّحك وسماته وخصائصه الأسماء الجميلة الرقيقة والصفات المحببة التي يخلعونها على ما ومن يبث السرور في القلوب وإذا أرادوا ذمَّ امرئٍ نعتوه بنقيض الضّحك وخصائصه، فقال: «ولفضل خصال الضّحك عند العرب تسمِّي أولادها بالضَّحاك وببسَّام وبطلق وبطليق، ***وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم***، وفرح، وضحك الصالحون، وفرحوا، وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السن، وبسَّام العشيات، وهشٌّ الى الضيف، وذو أريحيَّة واهتزاز، وإذا ذمُّوا قالوا: هو عبوسٌ، وهو كالحٌ، وهو قطوب، وهو شتيم المحيَّا. وهو مكفهرٌّ أبداً، وهو كريهٌ، ومقبَّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخلِّ منضوح»(٦٨).

وظائف الضحك

لعل إكثار **الجاحظ** من نثر النكت والنوادر والطرف بين طيَّات كتبه هو أحد أهمِّ العوامل التي حفزت النقاد على وسمِ أسلوب **الجاحظ** بالاستطراد،

---

(٦٧). م.س . ص ١٨.

(٦٨).. م.س . ص ١٨ - ١٩.

وربما ذهب بعضهم إلى أن هذا الاستطراد غير مبرَّر ولا لزوم له، والحقُّ أنَّ هذا الفهم خاطئ، ولا أبالغ إذا قلت إنه قصور معرفي، سيَّان كان هذا الادعاء بسبب النكت وأضرابها أو كان غير ذلك، لأن هؤلاء النقاد لم يقفوا قط على مغازي مفكرنا ومراميه من هذه النكت ولا البعد المعرفي لاستطراداته الأخرى، ونتكلَّم هنا على ما يخصّنا وهو النكت وملحقاتها.

لم تكن النكت والطّرف والنوادر التي أوردها **الجاحظ** حشواً زائداً ولا استطراداً نافلاً، وإنّما هَدَفَ إلى مجموعة من الأغراض، وقد استطاع فعلاً أن يوظِّفها من أجل ذلك توظيفاً رائعاً بارعاً، فجعلها:

أولا: محطات استراحة واستنشاط تخرج القارئ من رتابة الجدِّ إلى رحابة الإريحيّة والانشراح، لأن مواصلة الجدِّ بالجدِّ تورث الملل والكلل، وتقود بالتالي إلى النفور. والنفور يحجب الفهم عن الأذهان، وانحجاب الفهم يفقد الجَّد أهميته والعلم قيمته، وفي ذلك يقول: «وإن كنَّا قد أمللناك بالجدِّ والاحتجاجات الصحيحة والمروَّجة؛ لتُكثِّر الخواطر، وتشحذ العقول . فإننا سننشطِّك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظريفة؛ والاحتجاجات الغريبة، فربَّ شعرٍ يبلغ بفرط غباوةِ صاحبه من السرور والضحك والاستطراف، ما لا يبلغه حشدُ أحرِّ النوادر، وأجمع المعاني»(٦٩).

ولكن ماذا لو كان القارئ غير ملول ولا كلول، يستمرئ مواصلة الجدِّ بالجدِّ؟! طبعاً هذا حال من حال أهل العلم، هنا يجيب **الجاحظ** بقوله: إن هذه الطرف والنكت، علىكل حال، ليست مضيعة للوقت ولا هدراً له، لأن وظيفة

(٦٩) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٥.

هذه النكت هي التنشيط وانتشال القارئ من حال الملل فمن ليس يطاله الملال والكلال بإمكانه إن شاء أن يعدَّ ذلك جزءً من الكتاب ومن صميم موضوعه وإن شاء تجاوزه إلى ما بعده، وهذا ما عبَّر عنه بقوله: «فإن كنت ممن يستعمل الملالة، وتعجل إليه السآمة، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك، وجماماً[٧٠]لقوَّتك، وإن كنت صاحب علم وجدٍّ، وكنت ممرَّناً موقَّحاً، وكنت إلف تفكير وتنقير، ودراسة كتب، وحِلف تبيُّن، وكان ذلك عادة لك لم يضَّرك مكانه من الكتاب، وتخطِّيه إلى ما هو أولى بك»[٧١].

ويقول في غير هذا الموضع لتأكيد رأيه هذا: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء: تبيُّن حجَّة طريفة، أو تعرُّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت الجدّ»[٧٢] ومهما يكن من أمر فإن الاستنشاط ضروري لكل إنسان مهما كانت صفته وحاله، ويعرض ليؤكد لنا هذه الحقيقة نماذج شتّى لمختلف ضروب الناس بدءاً من **النبي عليه الصلاة والسلام** مروراً بالصحابة والخلفاء والفقهاء وصولاً إلى عامة الناس، ويورد شاهداً جميلاً لذلك فيقول: «قال **أبو الدرداء**: إني لأجمُّ نفسي ببعض الباطل، كراهة أن أحمل عليها من الحقِّ ما يملُّها»[٧٣] وهذا المعنى، والاتجاه بجملته، هو ما أوجزه لنا المرحوم **شفيق جبري** بقوله: «إن قطع عضو من أعضاء الحيوان، أو إلقاء السم على هذا الحيوان، أو استقصاء صفاته، أو دفنه في النبات، أو ذوقه،

---

(٧٠) . وردت في أكثر من نسخة حجاماً.

(٧١) . م.س . ج ٣ . ص ٦.

(٧٢) . الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٧.

(٧٣) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٧.

أو بعج بطنه، أو جمع أضداده في إناء، إنَّ هذا كلُّه لا تلتمس فيه إلا الحقيقة، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل، إنها جافَّة، وأيُّ طراوة في تجارب نجربها في ضب، أو في حيَّة، أو في ظليم، أو في خنفساء، أو في عقرب، أو في جرذ، أو في نملة، ولكنَّ عبقريَّة البشرية لا يتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف إلى الطراوة، واليبس إلى الغضاضة، وهذا التصوير إنَّما هو من عمل الفن، فإذا أردنا أن ندرك قدرة **الجاحظ** عليه لزمنا أن نعجل إلى الإحاطة بناحية من نواحيه، تُنشيء لنا لذَّة تروِّض قوانا العقلية، فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً، وأمرن طبيعة وأغنى مادة»(٧٤).

ثانياً: صحيح أنَّ مفكِّرنا كان يختم جلَّ فقراته المضحكة بنوادرها وطرائفها بقوله، أو مثل قوله: «ليس هذا، حفظك الله، من الباب الذي كنَّا فيه، ولكنَّه كان مزاحاً وجماماً»(٧٥) إلا أنه كان يوظف هذا النكت والطرائف توظيفاً علمياً، من حيث جعلها حلقة وصل بين الفقرة والفقرة، أو بمثابة التمهيد الفكه لوصل القارئ بالمعلومة الجديدة عبر طرفة من طبيعة الواقعة أو الخبر أو المعلومة، والحق أننا ومن خلال تتبعنا لما أورده **أبو عثمان** من النكت والطرائف والدعابات لم نجده إلا قاصداً وواعياً لما يفعل، بحيث يأتيك بالدعابة، الطويلة أو القصيرة، لينطلق من خلالها، أو من حيث ينتهي عنده، إلى حقيقة علمية، أو معلومة جديدة، تكون النكتة منها بمثابة المؤكِّد أو المناقض، ومن ذلك مثلاً طرفة الجارية الكثيرة الاغتسال الممهدة للحديث عن البغال. والحديث الجنسي الطويل الذي

---

(٧٤). شفيق جبري: **الجاحظ معلم العقل والأدب** . ص ١٨٤.

(٧٥). الجاحظ: **الحيوان** . ج ٦ . ص ٢٦٤.

دار بين فتاة وأمِّها تمهيداً منه للولوج إلى الكلام في الفيلة. وكذلك ما جاء عن علاقة الإنسان بالكلب، والكلاب بالذئاب، والقردة، وطريفتيه مع الذبان، وغير ذلك الكثير، بل حتى كتابه البخلاء لم يكن ـ كما يخال البعض ـ مجرد عرض وسرد لأحوال البخلاء المضحكة «فهو لم يأخذ بخلاءه من بطون التواريخ ولكنَّه أخذهم من بيئته وخصَّ بالذكر منهم بخلاء البصرة بلده، وبخلاء خراسان ولاسيما عاصمتها مرو، وسمَّى المبخِّلين غير متحرج؛ وقد صوِّر بخلاءه تصويراً واقعياً حسياً، وتصويراً نفسياً، وجعلته شخصيته المرحة العابثة، المطبوعة على السخرية والتهكم، يمزج في تصويره إياهم الجدَّ بالعبث، والنقد للعادات والأخلاق بالفكاهة، فأبرز لنا حركاتهم ونظراتهم القلقة أو المطمئنة ونزواتهم النفسية، وأطلعنا على مختلف أحاديثهم أكان ذلك في شؤونهم الخاصة أو في شؤونهم العامة. وأرانا نفسياتهم وأحوالهم جميعاً»(٧٦) فكان الكتاب بكلمة واحدةٍ: دراسة اجتماعية ونفسية تصِّور حال أهل الحاضرة العباسية وتحلل نفسيات أهل العصر وما وصلوا إليه من معطيات أدَّت إليها جملة التطورات المختلفة التي وصلت إليها تلك الحاضرة.

وقد أكَّد **الجاحظ** ذاته حقيقة أنَّه لم يكن يرمي إلى الهزل لمجرد الهزل، ولا إلى العبث لمجرد العبث وإضاعة الوقت، وأن ما يورده من الدعابات وبواعث الفكاهة إنما له وظائف وأغراض محددة مرتبطة بما يدور عليه الحديث فيقول في ذلك: «وهذا كتاب موعظة وتفقُّه وتنبيه، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده .... وقد غلَّطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزحٍ ولم تعرف معناه،

(٧٦) ـ مقدمة البخلاء ـ ص ٧.

ومن بطالة لم تطلع على غورها؛ ولم تدر لم اجتلبت، ولا لأي عمل تُكلِّفت، وأي شيء أُريغ بها، ولأيِّ جدٍّ احتمل ذلك الهزل، ولأي رياضة تجشّمت تلك البطالة؛ ولم تدر أن المزاح جدٌّ إذا اجتلب ليكون علَّة للجدِّ، وأن البطالة وقار ورزانة، إذا تُكُلّفت تلك العاقبة، ولما قال **الخليل بن أحمد**: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يعلم ما لا يحتاج إليه. قال **أبو شمر**: إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا، لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مرِّ الحقِّ، وصعوبة الجدِّ، وثقل المؤنة، وحيلة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرَّد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزِّه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السآمة»(٧٧).

مواضع الضحك

نعم، إنَّ **الجاحظ** كان ذا روح فكهة، وميله إلى التهكم والإضحاك شديد، ولكن ذلك ليس يعني أنه مغرم بالهزل والهذر إلى الحدِّ الذي يعميه عن الجدِّ ليحيل كلَّ حياته وكتبه إلى ضرب من العبثية، وقد سبق وبينا في كتابينا الأوَّلين عن **الجاحظ** كيف أنه كان ذا منحًى اعتدالي في كلِّ شيء تقريباً، وقد لاحظنا ذلك في نظريتيه الجمالية والأخلاقية، وتأكد لنا أنه أميل إلى إعطاء كل شيء حقه، وقاعدته الأساسية في ذلك: «***لكل مقام مقال***». وها هو هنا يؤكد هذا الاتجاه ويعززه في نظريته في الضّحك، فيرى أنه أيضاً في الضّحك تصح

(٧٧) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ١ . ص ٣٨/٣٧.

نظرية الاعتدال ومقولة لكل مقام مقال، ويذهب إلى أن للضّحك مواضع لا يجوز تعديها، كما أن له مقداراً إذا جاوزه أساء وفقد قيمته وربما أورث خطراً، يقول: «وللضّحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جاوزهما أحد وقصَّر عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزاح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي له جُعل الضحك، صار المزح جدَّاً والضحك وقاراً»(٧٨).

ضرورة التنويع في التأليف

بغضِّ النظر عن اتجاه بعض الكُتَّاب إلى إفراد مؤلفات خاصة للفكاهة والإضحاك بجمع النوادر والطرائف. فقد درج بعض القدماء على عادة توشيه كتبهم، على اختلاف مضامينها، بضروب من الظرف ولطائف المعارف وتزويقها بالنوادر والفكاهات، كل ذلك للأغراض التي أوضحها **الجاحظ** وبيَّناها قبل قليل. ولكن، لعلّ **الجاحظ** واحدٌ من قلَّة نظَّروا لهذا الغرض وألحف على ضرورته. وهذا هو يقول: «على أني قد عزمت . والله الموفق . أن أوشح هذا الكتاب وأفصِّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.

---

(٧٨). الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٩.

وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذ السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك إلا أن تستفيدوا خيراً»(٧٩).

والغاية من ذلك، بالإضافة إلى ما أسلفنا، هو جعل الكتاب روضة معارف وبستان لطائف، وإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار وجدنا أنَّ جلَّ كتب **الجاحظ** تستحق الوصف الذي وصف هو به كتاب الحيوان عندما قال: «والكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً، وظرفٌ حشيَ ظرفاً، وإناءٌ شحن مزاحاً وجدَّاً، إن شئت كان أَبْيَنَ من **سحبان وائل**، وإن شئت كان أعيا من **باقل**، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه»(٨٠).

على الرغم من أنَّه لايجوز لنا أن نقيس حال التأليف والكتب أيام **الجاحظ** على ما هي عليه الآن في عصرنا، ولاسيما بسبب التطورات الكثيرة والهائلة في جميع المجالات، فإن البعض قد يتساءل: أيجوز أن تنطبق أحكام **الجاحظ** هذه على الكتب في عصرنا؟

لعلنا نجد من يوافقه، ولكنَّ المعارضين أكثر بكثير، ولذلك نستطيع أن نتأول المعنى ونفهمه على ضوء معطياتنا المعاصرة، فنجد أنَّ أنصار مفكرنا في اتجاهه هذا، وهو في لبوس العصر، كثيرون جداً، وهذا هو العالم الشهير **لافوازيه** Lavoisier يعبِّر عن هذا المعنى بقوله: «لما كانت الألفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها، نشأ عن ذلك أننا لا نستطيع تجويد اللغة إلا إذا جودنا العلم،

---

(٧٩) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٧.

(٨٠) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ١ . ص ٣٩/٣٨.

ولانستطيع تجويد العلم إلا إذا جوَّدنا اللغة، ومهما كانت الأمور أكيدة ثابتة، ومهما كانت الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة، إننا إذ لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار، لاننقل إلا انفعالات خاطئة»(٨١).

صحيح أن **لافوازيه** لم يعرج على الضحك بصورة واضحة، وربما دون تلميح أيضاً إلا أنه يبرز «مقدار عطف عالم من أجلِّ العلماء على الفن»(٨٢) أو لنقل بمعنى آخر وبلفظ آخر، إنه يصرُّ على تلازم العلاقة وجدليتها بين العلم والفن، بحيث، وإن استقل كلٌّ منهما بميدانه وأساليبه ومناهجه، فإنهما مترابطان وكلٌّ منهما بحاجة الآخر، وبهذا المعنى كان تمني الأديب **موريس دوني ـ** Maurice Donnay «أن ينشأ الأدب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان»(٨٣).

وأخيراً، لعله ليس من باب الاستطراد غير المحبب، أن نبين هذا التشابه العارض بين ما ذهب إليه مفكرنا، وأوضحناه فيما سبق، والفيلسوف الكبير والشهير **هنري برجسون**، فقد ذهب هذا الأخيرُ في كتابه «الضَّحك» إلى تحديد الصفات الثلاث التالية له، وهي ما يشبه ما قال به مفكرنا، وهذه الصفات هي(٨٤):

أولاً: الضحك ظاهرة إنسانية محضة، وقد وجد الفلاسفة القدماء أن الضحك خاصة الإنسان أوعرضه اللازم فعرَّفوا الإنسان بأنَّه حيوان مضحك، ودعوا هذا التعريف رسماً تاماً وهو ما تركَّب من جنس الشيء القريب وخواصه

---

(٨١) . شفيق جبري: **الجاحظ** . ص ١٤٨.

(٨٢) .. م.س . ذاته.

(٨٣) . شفيق جبري: م.س . ص ١٨٥.

(٨٤) . هنري برجسون: **الضّحك**، ترجمة عبد الله عبد الدايم وسامي الدروبي. وكذلك عند: د. عبد الكريم اليافي: م.س . ص ٨٣/٨٢. وأيضاً عند: أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال . ص ١٧٥.

اللازمة، ويزيد عليهم **برجسون** أنَّه حيوان ضاحك إذ لا يضحك الإنسان من الجماد ولا من النبات ولا من الحيوان، وإذا ضحك من الحيوان أو غيره فإنما يكون ذلك بسبب ما تَبَيَّنَهُ فيه من تعبير إنساني أو وضع من الأوضاع الإنسانية.

ثانياً: الضَّاحك بعيد عن الانفعال والتأثر، قريب من اللامبالاة، وكذلك حال المضحك، لأن الضّحك عقلي، يضحك المرء وصفحة نفسه هادئة.

ثالثاً: يفترض الضّحك مجتمعاً، ذلك أنَّه بحاجة دائمة إلى صدى، لذلك نلاحظ أن ضحك المشاهد في المسرح يكون أشدَّ كلما كانت القاعة أغصَّ وأكثر امتلاءً بالناس، ولهذه الملاحظة أهميتها الكبرى في فلسفة الضّحك لدى **برجسون** لأنَّها تؤكد الدَّلالة الاجتماعية لظاهرة الضّحك.

ولقد انتبه **الجاحظ** إلى هذه الخاصية وأوضحها بقوله: «ولكنَّ ضَحِكَ من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب»(٨٥).

(٨٥) . الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٧٦.

الفصل الثالث

فن الإضحاك عند الجاحظ

القـــــبح الجمـــــالي

القــبح وفــن الإضــحاك

أصـــــل الإضـــــحاك

عِلَّـــــة الإضـــــحاك

أنـا أسـتظرف أمـرين استظرافاً شـديداً: اسـتماع أحاديـث الأعـراب واحتجـاج متنـازعين فـي الكـلام وهمـا لا يحسـنان منـه شـيئاً، فإنهمـا يثيران ما يضحك كلَّ ثكلان.

الجاحظ

اختلف النقَّاد في قيمة القبح جمالياً، هل هو الجمال السلبي أم هو إحدى درجات الجمال المتدنية المتفاوتة في التدني في سُلَّم القيم الجمالية، أم هو الجمال المذموم، قياساً على الفضائل والرذائل في الأخلاق حيث الأولى ممدوحة والثانية مذمومة؟

وللحق فإنَّ الأمر لم يستوفَ على هذا النحو من الطّرح، إذ أن معظم مدار النقاش كان حول التعبير عن القبح جمالياً، حتَّى أصبح ثمَّة شبه اتفاق على أنَّ القبح الجمالي ليس القبح الجسدي أو المتجسد واقعياً، فهو مذموم أو غير مستحب. وإنّما هو التعبير عن القبح بوساطة الفن، أي أنَّ القبح المذموم في الواقع يغدو جميلاً عندما يتجسَّد فنياً بلوحة أو قصيدة أو قصة أو مسرحية أو في

غير ذلك من الفنون، والأمثلة على ذلك كثيرة في الفن منها على سبيل المثال لا الحصر جلُّ قصص المقامات الأدبية المشهورة، وأحدب **ابن الرومي**، وبخلاء **الجاحظ**، وبخيل **موليير** ومتحذلقاته.

القبح الجمالي

ولكن كيف يكون القبيح جميلاً في الفن؟

هذه المسألة قلَّ من تصدَّى لها بروية وعمق، وإن كان لهذا الموضوع غير هذا الموضع فإنَّه لا يجوز تركه دون بعض التوضيح لما له من صلة بموضوعنا الآن، وإذا أردنا الوقوف على مسوِّغات تقبل القبح جميلاً في الفن، أو الأسباب التي تجعلنا نرى القبيح جميلاً في الفن، وجدنا أنفسنا أمام النقاط التالية:

أولاً : تتفاوت قيم الجمال والقبح بين الواقع والفن، وقبلهما بين واقع وواقع، وبين فن وفن، تفاوتاً غير مرسوم ولا محدَّد، بحيث لا يمكن طيَّه تحت قاعدة أو قانون أبداً، فالخال أو الشَّامة تضفي على خدِّ الصبيَّةِ روعةً وأَلَقاً ولكنَّها إن كانت على أرنبة أنفها كانت مجلبة تعسٍ لها لأنها قد تلقي على ما لها من الجمال لبوساً من القبح. وشامة الخدِّ ذاتها قد تكون سبباً في قبح اللوحة التي تصوِّر صاحبتها ولكنَّها قد تقدح شرارة الإلهام عند الشاعر فيصورها بأبهى ما يكون من الجمال.

ثانياً: إنَّ القبح الذي يغدو في الفن جميلاً ليس هو عين ذاته، وإنما هو صورته، أعني بذلك أن الوجه القبيح، أو الأنف الكبير على نحو غير مستلطف أبداً، أو التصرف القميء، أو الطبع المذموم... كلُّ ذلك ليس جميلاً في ذاته، وإنَّما الجميل هو تصويره فنياً، ويختلف التصوير من فن إلى فن، ومن فنَّان إلى

آخر، ولذلك تختلف قيم جمال هذه الموضوعات تبعاً لبراعة الفنانين وقدراتهم على اقتناص المشاهد الفنية.

ثالثاً: ويلزم عن ذلك مباشرة أن جمالية الإبداع الفني تتجلَّى أكثر ما تتجلَّى في دقَّة الوصف، وكيفية التصوير وبراعة التعبير وحسن انتقاء اللوحة «رسما أو شعراً أو نثراً...» ورشاقة الحركة في كلٍّ ذلك.

رابعاً: ثمةَ علاقة وثيقة بين الداخل والخارج، بين الظاهر والباطن، أي بين الفعل والانفعال، بين ظاهر السلوك وباطنه، بين السلوك ودوافعه، بين التكوين الخارجي والتكوين الداخلي، هذه العلاقة قد تكون تنافراً وقد تكون تضافراً، ويكون القبيح جميلاً في الفن بقدر القدرة على التعبير عن هذه العلاقة أو إظهارها، ولا ينبغي أن يفهم هذا الكلام على صورة آلية عشوائية أو اعتباطية، فإنَّه غالباً ما يأتي به المبدعون حدسياً، أو ربما دون تفكير فيه أو توقف عنده.

خامساً: وذهب بعض المفكرين إلى أننا نتعامل مع القبيح في الفن على أنَّه جميل، ونتقبله كذلك لما يقوم به من وظيفة تطهيرية من جهة، ولأنَّه يذمُّ القبح ويستنكره من جهة ثانية، وهذا ما عبَّر عنه **أرسطو** بقوله: «إن الغاية المنشودة من المسرح هي إحداث التطهير الذي يحدثه المسرح في النفس الإنسانية بوساطة انفعالي الخوف والشفقة»(٨٦)، أو ما ذهب إليه **جوته** من أننا نستطيع بالفن أن نتخلص من رغباتنا الشريرة ودوافعنا السيئة، فكتب لذلك **آلام فرتر** التي خلَّصته من رغبته الملحَّة في الانتحار.

---

(٨٦). أميرة مطر: **فلسفة الجمال** . ص ٦٧.

القبح وفن الإضحاك

ولكن هذا كلّه، يظلُّ في إطار العموم والشمول بحيث ينسحب حكمه على التعبير الفني بوجه عام، أما المسألة الحاسمة والجوهرية في العلاقة بين القبح والفن في رأينا فتمثل في طبيعة هذا التعبير الجمالي أو الفني عن القبح، التي هي في حقيقتها فن الإضحاك بالدرجة الأولى والتخُّم الذي يلتقي فيه الفن مع الأخلاق.

إن القبح جميل في الفن لأنَّ التعبير عن القبح فن بحدِّ ذاته هو فن الإضحاك، وأعني بذلك أنَّ غاية رئيسة وجوهرية من غايات التعبير عن القبح في الفن هي الإضحاك، ولكننا إذا حملنا الضحك على معناه الأوسع والأشمل الذي يشير إلى الهزء والسخرية والذي يتضمن بدوره نوعاً من الاستنكار والشجب لوجدنا أنَّ الغاية الأولى والأخيرة للتعّبير عن القبح جمالياً هي الإضحاك، والإضحاك فقط. وهذا ما يبدو جلياً في الفنون كلّها بما فيها فن الإضحاك النوعي المتمثل بالنكت.

وفن الإضحاك ليس فنَّاً متميِّزاً بهويتَّه وأدواته، ولكنَّه متميِّز ومتمايز بأساليبه ومبادئه، وأعني بعدم تميَّزه بهويته وأدواته أنَّنا نستطيع أن نجده أو نعِّبر عنه في كلِّ الفنون، ولكنَّ الأسس والمعايير التي تستند إليها كلُّ الفنون لتحقيق هذا الغرض إنّما هي واحدة، ومن ذلك مثلاً أننا نجد في فن الإيماء ما يضحك أو ما يراد أن يعبَّر به عن فكرة لا تستوجب الضحك وكذلك في بقية الفنون، على أن ثمَّةَ فناً مستقلاً متخصصاُ

بالإضحاك هو فن النكت، وما جرى في مجراها، وربَّما يعزى إلى الرسم السَّاخر «الكاريكاتير» هذا الغرض أيضاً(٨٧).

أصل الإضحاك

«يضحك المرء بأسباب متعددة، فهو يضحك ببعض التأثيرات الحسّية كالدغدغة أو بفعل بعض المخدِّرات(٨٨) وفي بعض الحالات العصبية وفي بعض الأمراض(٨٩)، ولكنَّ الضّحك يتأتَّى خاصّة من الفرح والابتهاج والفوز والانتصار والبشارة السَّارة. إلا أنَّ المرء قد يضحك دون أن يكون فرحاً، فللضحك أسباب نفسية تستدعيه غير الفرح. نحن نضحك حين نسمع نكتة أو نادرة أو فكاهة، وهذا النوع هو الذي يهمُّنا هنا وهو الذي يحصل من الشعور بالهزل أي حين يكون الموضوع هزلياً. حينئذ يدخل الضّحك في الدراسات الأدبية ونجد له قيمة جمالية فنية»(٩٠).

والضَّحك الذي يدخل في الدراسات الأدبية أنواع وضروب، فمنه النكتة والطُّرفة والهزء والهزل والظرف، والمزاح والسخرية والتّهكم، والملح

---

(٨٧) . عزت السيد أحمد: **التهكم وفن الإضحاك عند التوحيدي** . ص ٧٩ . ٨١.

(٨٨) . المخدرات مثل الغاز المضحك وهو أكسيد الآزوتي أو أول أكسيد الآزوت N_2O فإذا استنشقه الإنسان تخدَّر وغلب عليه الضحك.

(٨٩) . يعلَّل ضحك الإنسان في بعض الحالات العصبية بصرف نصيب من الطاقة في أسهل طرق المقاومة، وهو تقلُّص بعض العضلات اللطيفة في الوجه، وعند ذلك يكون تفريغاً للشحنة العصبية، فهو بذلك تنفيس وتفريج، وكذلك الأمر في الهزل، وهذا هو السرُّ الذي يربط بين الضّحك والبكاء لأن في كلٍّ تخفيفاً، فقد يؤدي السرور الهاجم إلى البكاء، كما قد يضحك الإنسان من الألم. أما الأمراض التي تستدعي الضحك فكنوبة الهستريا.

(٩٠) . د. عبد الكريم اليافي: م.س . ص ٧٤ . ٧٥.

والنوادر، ولكلٍّ منها أصناف وضروب، على أنَّه في مكنتنا أن نجمعها كلّها تحت إطار النكتة من حيث المدلول والوظيفة، وإن لم يكن ذلك جائزاً من حيث الاسم فإنَّه مسوَّغ من حيث المبدأ وآلية أداء المعنى أو المراد. أو ما يمكن أن نسمّيه علَّة الإضحاك، وقد رأى **الجاحظ** أنَّ هذه العلَّة على ضربين، هما اللذان يستملحهما هو ويستظرفهما ويضحك منهما، فقال: «وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً، أحدهما استماع حديث الأعراب، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئاً، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كلَّ ثكلان وإن تشدَّد، وكلَّ غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب، ولو أنَّ ذلك لا يحلُّ لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل، ما يجوز في كل فن، وسنذكر من هذا الشكل علاً، ومن احتجاجات الأغبياء حججاً»(٩١)، والنَّماذج التي أوردها كثيرة نذكر منها:

أولاً: مع الأعراب

. قيل لأعرابي: ما اسم المرق عندكم؟ قال: السخين؟ قال: فإذا برد؟ قال: لاندعه يبرد.

. باع نخاس لأعرابي غلاماً فأراد أن يتبرأ من عيبه قال: اعلم أنه يبول في الفراش. قال: إن وجد فراشاً فليبل فيه.

. حدثنا صديق قال لي: أتاني أعرابي بدرهم فقلت له: هذا زائف، فمن أعطاك هذا؟ قال لصٌ مثلك.

---

(٩١). الجاحظ: **الحيوان**. ج ٣ . ص ٦.

ـ قال: مات **لابن مقرن** غلام فحفر لهم أعرابي قبره بدرهمين، فلما أعطوه الدرهمين قال: دعوهما حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب(٩٢).

ـ قال **الربيع**: قلت لأعرابي: أتهمز **إسرائيل**؟ قال: إني إذا لرجل سوء. قلت: أتجرُّ فلسطين؟ قال: إني إذن لقوي(٩٣).

ـ خطب رجل امرأة أعرابيَّة فقالت له: سل عني بني فلان، وبني فلان، وبني فلان. فعدَّت قبائل. قلت: وما علمهم بك؟ قالت: في كلهم قد نُكحت(٩٤).

ثانياً: مع الجهلة والأغبياء

يسمع أحدهم ويحفظ ما ليس يفقه له وجهاً ولا معنى، ويدفعه حبُّ الظهور، مثلاً، إلى استخدام هذا المحفوظ غير المفهوم فماذا سيحدث؟ هذا **أبو لقمان الممرور** الذي كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنَّه الباب الأكبر من علم الفلسفة، وأن الشيء إذا عظم خطره سمُّوه بالجزء الذي لا يتجزأ.

ـ سأله أحدهم عن الجزء الذي لا يتجزأ: ما هو؟ قال: الجزء الذي لا يتجزأ هو **علي بن أبي طالب** عليه السلام، فقال له **أبو العيناء محمد**: أفليس في الأرض جزء لايتجزأ غيره؟ قال: بلى: **حمزة** جزء لايتجزأ، و**جعفر** جزء لايتجزأ. قال: فما تقول في **العباس**؟ قال: جزء لا يتجزأ، قال: فما تقول في **أبي**

---

(٩٢) ـ الجاحظ: **البيان والتبيين** ـ ج ٣ ـ ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٩٣) ـ الجاحظ: **الحيوان** ـ ج ٣ ـ ص ١٨. كذلك في **البيان والتبيين** ـ ج ٢ ـ ص ٣٢٣.

(٩٤) ـ الجاحظ: **البيان والتبيين** ـ ج ٢ ـ ص ٣٠٤.

بكر وعمر؟ قال: **أبو بكر** يتجزأ، **وعمر** يتجزأ. قال: فما تقول في **عثمان؟** قال: يتجزأ مرتين. **والزبير** يتجزأ مرّتين، قال: فأي شيء نقول في **معاويه؟** قال:لايتجزأ ولا لايتجزأ(٩٥).

. ومن نوادر **الجاحظ** في هذا الباب أيضاً قوله:

قلت **لعبيد الكلابي**: أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟

فقال: لا أحب اللؤم بشيء.

فقلت: إن أمير المؤمنين ابن أمة؟

فقال: أخزى الله من أطاعه!

فقلت: نبيا الله **اسماعيل ومحمد** ابنا أمةٍ؟

فقال: لا يقول هذا إلا قدري.

فقلت: وما القدري؟

فقال: لا أدري إلا أنَّه رجل سوء! (٩٦)

علَّة الإضحاك

قَدَّم **أبو حيان التوحيدي**، ألمع تلاميذ **الجاحظ** على الإطلاق، تحليلاً للضّحك أخذه عن **أبي سليمان السجستاني**، رأى فيه أنَّ الضَّحك إمكانية «قوَّة» مخصوصة بالإنسان من حيث جمعه لقوَّتي الإنسانية والحيوانية. وقوَّة الضَّحك تتوسط هاتين القوتين، أما سبب الضَّحك فهو التعجب أو الاندهاش من أمر «سلوك، قول، صورة...»

---

(٩٥) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٣٨/٣٧.

(٩٦) . د. جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٢٠.

تتساوى فيه بدائل الاحتمالات التي تعلّله، وهذا كشفٌ بارعٌ للسَّبب الذي يولِّد الضّحك يمكن أن نلحظه في أي ظرف ومكان، فوقوف العالم مثلاً أمام ظاهرة يفسّرها متضادان كلٌّ على حدة وبالدرجة ذاتها غالباً ما يثير ضحكه(٩٧).

ولكن يحقُّ لنا أن نتساءل هنا: كيف يكون التعجب الذي يستدعي الضَّحك؟

صحيح أننا لا نسأل أنفسنا لماذا ضحكنا لدى اتصالنا بموضوع ما، وإذا حاولنا ذلك فإننا في الأرجح سنعجز عن الجواب، أو على الأقل سنتخبط به بحيث لايكون شافياً ولا وافيا، ولكننا وفي كلِّ حالات الضَّحك سنجد أنفسنا أمام تساؤل ما، تزداد حدَّته مع اتساع مدى الضَّحك وشدَّة الإدهاش المثير للضَّحك، وأكثر ما يتجلّى هذا التساؤل في كيف ولماذا؟

الحق أن هذا التعجب يثار بوسائل حسِّية متعددة وطرائق أدائية مختلفة تتأسس في رأينا على مبدأين هما: المباغتة والتطرف، مستقلين ومرتبطين.

أولاً: المباغتة

نقصد بالمباغتة أنَّ موضوع الضحك «مرئياً كان أم مسموعاً أم مشتركاً» يقود تفكير المتابع بشدَّة متباينة الدرجة، من خلال تسلسله وطريقته، إلى توقع أو إطلاق حكم قبلي على ما سيحدث، ولكنَّ الحدث أو المحدِّث ينعطف فجأة إلى الاتجاه المعاكس تماماً للاتجاه الذي

(٩٧). عزت السيد أحمد: **التهكم وفن الإضحاك عند التوحيدي** . ص ٨٣.

قاد المتابع إليه في لحظة أونقطة مناسبة، أو لنقل بصورة أخرى إن الحدث أو المحدِّث يهيء المتلقي لتوقع شيء أو أشياء ولكنَّه يباغته بما ليس يتوقع، وإذا ما تعمّقنا في فهم هذه الآلية وجدنا أنفسنا مضطرين لمخالفة جلِّ المفكرين الذين نظَّروا للضَّحك ورأوا أنَّه نتيجة للشعور الغامر بالانتصار وخفض الضاحك للمضحوك، لأن ما يحدث في اللحظة السابقة بالضبط هو شعور متناقض: شعور بالانهزام أمام الحدث أو المحدث، وفي اللحظة ذاتها شعور بالانتصار، الانتصار بالنجاة من شرك الحدث، أو لنقل الهزء بما حدث وفرح الضاحك لعدم وجوده مكان المضحوك منه.

وتدخل في هذا الباب أيضاً أجوبة سرعة البديهة التي إما تباغت السائل بما ليس يتوقع أو يرغب أو تردُّ عليه كرَّته. وكذلك شأن المفارقات. ولعل هذا ما أراده **الجاحظ** من الأمرين اللذين يستطرفهما، فكلام الأعراب يضحك عندما يحقق هذه المعادلة أما ما خلاها فليس مضحكاً، وقد أورد **الجاحظ** نفسه كلاماً للأعراب لا يقلُّ رفعة عن الحكمة والرَّوعة الجمالية.

وليس من المستحب، فيما أعتقد، أن نترك هذه الفقرة دون أن نوشي الكلام ببعض الطرائف والفكاهات التي أوردها **الجاحظ** مما ينطبق عليها كلامنا السابق:

ـ حدَّثني **ابن المديني** قال: تحوَّل **أبو عبد الله الكرخي اللحياني** إلى الحربية (موضع) فادَّعى أنَّه فقيه، وظنَّ أنَّ ذلك يجوز له؛ لمكان لحيته وسَمْته،

قال: فألقى على باب داره البواري[٩٨]، وجلس وجلس إليه بعض الجيران، فأتاه رجل فقال: يا **أبا عبد الله!** رجل أدخل إصبعه في أنفه فخرج عليها دم، أي شيء يصنع؟! قال: يحتجم. قال: قعدت طبيباً أو قعدت فقيهاً؟![٩٩].

. قدَّم رجلٌ من النحويين رجلاً إلى السلطان في دَيْنٍ له عليه فقال: أصلح الله الأمير، لي عليه درهمان، قال خصمه: لا والله أيها الأمير، إن هي إلا ثلاثة دراهم، لكنَّه لظهور الإعراب ترك من حقِّه درهماً[١٠٠].

ـ قدم رجل على صاحب له من فارس فقال له: قد كنت عند أمير المؤمنين فأيُّ شيء ولاَّك؟ قال: ولاَّني قفاه[١٠١].

. قال **أبو الحسن:** دعا بعض السلاطين مجنونين ليحرِّكهما فيضحك مما يجيء منهما، فلمَّا أسمعاه وأسمعاه غضب ودعا بالسيف، فقال أحدهما لصاحبه: كنَّا مجنونين فصرنا ثلاثة[١٠٢].

. زعم **الهيثم بن عدي** قال: كان رجل يسمَّى **كلباً**، وكان له بُني يلعب في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن من؟ فقال: ابن وَوْ وَوْ وَوْ!! [١٠٣].

ـ قال: دخلت على ختن **أبي بكر بن بريرة**، وكان شيخاً ينتحل قول الإباضية، فسمعته يقول: العجب ممن يأخذه النوم وهو لايزعم أن الاستطاعة

---

(٩٨) . البوري والبوريَّة أو الباري، والبارية والبارياء والبورياء: الحصير المنسوج.

(٩٩) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٨/٧.

(١٠٠) . الجاحظ: **البيان والتبيين** . ج ٢ . ص ٣٢٢.

(١٠١) . م.س . ج ٣ . ص ٥٦١.

(١٠٢) . م.س . ج ٢ . ص ٣٢٨.

(١٠٣) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٢ . ص ١٦٨.

مع الفعل[١٠٤] قلت: وما الدليل على ذلك؟ قال: الأشعار الصحيحة، قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

مَا إِنْ يَقَعْنَ الأَرْضَ إِلاَّ وِفْقَا

ومثل قوله:

يَهْوِينَ شَتَّى وَيَقَعْنَ وِفْقَا

ومثل قوله، وقوله، وقوله أيضاً:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَاً كَجِلْمُوْد صَخْرٍ حَطَّه السَّيلُ مِنْ عَلِ

ثم أقبل عليَّ فقال: أما في هذا مقنع؟ قلت: بلى، وفي دون هذا! [١٠٥].

. وقال:حدَّثني **شمئون** الطبيب قال: كنت يوماً عند **طاهر بن الحسين** فدخل عليه **أبوعبد الله المروزي**، فقال **طاهر**: يا **أبا عبد الله** منذ كم دخلت العراق؟ قال: منذ عشرين سنة، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة، قال: يا **أبا عبد الله** سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين[١٠٦].

ثانياً: التَّطرُّف

ونعني به المبالغة في الأمر إلى حدِّ الشذوذ وتجاوز المقبول والمألوف، وإن لم يكن من معيار أو مستند لتحديد اتجاه الشذوذ في حسن أو قبح أو خير أو شر... فإن الأغلب الأعمَّ يدور حول التندر بالقبح وذمِّه واستنكاره بطريقة سلبية، انفعالية، يكون الضَّحك بمثابة التبرُّئ منه والتَّشفِّي من صاحبه، على أنَّ

---

(١٠٤) . من أصول المعتزلة أنَّ استطاعة الفعل تسبق الفعل، وجمهور الإباضيين على أن الاستطاعة مع الفعل، وشذَّ عنهم الحارثية فإنهم وافقوا المعتزلة "الفرق بين الفرق . ص ٨٤.

(١٠٥) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ١٠/٩.

(١٠٦) . الجاحظ: **الحيوان** . ج ٣ . ص ٩/٨. وقد ورد بلفظ آخر في **البخلاء** . ص ٣٧/٣٦.

المقصود من القبح لاضدَّ الجمال وحسب، وإنّما كلُّ ما يستقبح في المرء من قول أو شكل أو فعل. ولذلك نستطيع أن نضيف هنا حركات التقليد والمحاكاة، محاكاة إنسان أو حيوان أو غير ذلك، وآلية التصرُّف بمعنى تغييب العقل أو عنصر الإنسانية عن الإنسان ليغدو شبه آلة تعالج كل ما يعطى لها بالطريقة ذاتها مهما تباينت المعطيات(١٠٧)، وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب **هنري برجسون**(١٠٨) معتبراً الضّحك ثأر الحرية من الآلية(١٠٩).

ولكن لابدَّ من الإشارة هنا إلى أنّنا وإن كنّا نفصل بين المباغتة والتَّطرُّف فإنّنا لا نعني أنهما منفصلان عن بعضهما تماماً، فالمباغتة لا تستغني عن التطرف أبدا من أجل الإضحاك، لأن المباغتة لو كانت مقبولة لما أدَّت إلى الإضحاك، ولنأخذ هذه النادرة مثلاً:

ـ سأل **خالدَ بنَ صفوان** رجلٌ فأعطاه درهما، فاستقلَّه السَّائل. فقال: يا أحمق إن الدّرهم عشر العشرة، وإن العشرة عُشر المئة، وإن المئة عُشر الألف، وإن الألف عشر العشرة آلاف، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى ديَّة يبدو جلياً أنه لولا كانت المباغتة بالجواب منطوية على تطرف في المضمون لما كانت مضحكة. فلو أن **خالد بن صفوان** فاجأ السائل أو أدهشه بأن أعطاه ديناراً أو مئة، أو حتى استردَّ الدرهم منه، لكان الأمر شبه عادي، ولكن انظر

---

(١٠٧). عزت السيد أحمد: **التهكم وفن الإضحاك عند التوحيدي** . ص ٨٥.

(١٠٨). الحق أن ثمّة اختلافاً بين ما أراده برجسون وما أردناه نحن هنا وإن تشابهت إلى حدٍّ ما ظواهر الألفاظ. وهذا ما نرجو أن يتاح لنا إيضاحه أكثر في بحث لاحق.

(١٠٩). انظر تفصيل ذلك في كتاب برجسون: الضحك.

(١١٠). الجاحظ: **البخلاء** . ص ٢١٤/٢١٥.

كيف حوَّل وحوّر حتى جعل من درهمه ما يساوي ديَّة قتيل. وقس على ذلك سائر النكت وضروب الفكاهة.

وكما أن لكلٍّ فن من فنون الإضحاك أساليب متعددة وموضوعات متباينة، كذلك شأن التطرُّف، فقد يتناول طَبعاً وقد يصف خُلُقاً، وقد يصوِّر سلوكاً، وحتى يكون مضحكاً ينبغي ألاّ يخلو من ضروب المباغتة والمفاجأة والإدهاش... وسنعرض فيما يلي لنموذجين مما أورده **الجاحظ**. أولهما عادة التطرف في التقعير في الكلام والولع بغريبه، وثانيهما يصف سلوكاً أخلاقياً واجتماعياً تمادى صاحبه غاية التمادي فيه حتى صار مثيراً للضحك.

قال **أبو الحسن**: كان غلام يقعِّر في كلامه فأتى **أبا الأسود** الدؤلي يلتمس بعض ما عنده فقال له **أبو الأسود**: ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمى فطبخته طبخاً، وفتخته فتخاً، وفضخته فضخاً، فتركته فرخاً.

فقال **أبو الأسود**: فما فعلت امرأته التي كانت تشاره وتماره وتهاره وتزاره؟

قال: طلقها وتزوجت غيره. فرضيت، وحظيت، وبظيت. قال **أبو الأسود**: قد علمنا رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: بظيت، حرف من الغريب لم يبلغك. قال **أبو الأسود**: يا بني: كلُّ كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر السنور خرءها.

قال **أبو الحسن**: مرَّ **أبو علقمة النحوي** ببعض طرق البصرة وهاجت به مرَّة فوثب عليه قوم فأقبلوا يعضون إبهامه، ويؤذنون في أذنه، فأفلت من أيديهم فقال: ما لكم تتكأكأون علي كأنَّكم تتكأكأون على ذي جنَّة؟ افرنقعوا عنِّي. قالوا: دعوه فإنَّ شيطانه يتكلم

بالهندية. وقال **أبو الحسن**: هاج **بأبي علقمة** الدم فأتى بحجَّام فقال له: اشدد قصب الملازم، وأرهف المشارط، وأسرع الوضع، وعجِّل النزع، وليكن شرطك وخزاً، ومصُّك نهزاً، ولا تكرهن آبياً ولا تردن آتياً، فوضع الحجَّام محاجمه في جونته وانصرف(١١١).

أما النموذج الثاني فهو في وصف سلوك أقل ما يقال فيه إنه نقيض اللباقة والأدب، إنه أسلوب **عليٍّ الأسواري** في تناول الطعام الذي يدعو إلى العجب والدهشة والحيرة، وتنتزع الضحك من الأفواه انتزاعاً، وقد صوّرها **الجاحظ** لنا بأسلوبه الجمالي البديع صورة تهكُّمية رائعة بارعة لاتقل إدهاشاً عن السلوك بحدِّ ذاته، إن لم تفقه في ذلك.

قال **الحارثي**: والله إنِّي لو لم أترك مؤاكلة الناس وإطعامهم إلا لسوء رِعَةِ (ورع) **عليٍّ الأسواري** لتركته. وما ظنُّكم برجل نهش بضعة لحم تَعَرُّقاً، فبلع ضرسه وهو لا يعلم. فعل ذلك عند **إبراهيم بن الخطاب** مولى **سُلّيْم**، وكان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عيناه، وسكر وسدر(١١٢) وانبهر(١١٣)، وتربَّد(١١٤) وجهه، وعَصِبَ(١١٥) ولم يسمع، ولم يبصر. فلمَّا رأيت ما يعتريه، وما يعتري الطعام منه، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلَّى. ولم يفجأني قطُّ وأنا آكل

---

(١١١). الجاحظ: **البيان والتبيين** . ج ١ . ص ١٩٨.

(١١٢). سدر: تحير واضطرب.

(١١٣). انبهر: تتابع نَفَسُه.

(١١٤). تربَّد: اغبرَّ..

(١١٥). عَصِب: جفَّ ريقه.

تمـراً إلا اسـتفَّه سـفَّاً، وحسـاه حسـواً، وذراه ذرواً[١١٦] ولا وجـده كنيـزاً إلا تنـاول القصـعة كجمجمـة الثـور، ثمَّ يأخـذ بحضـينها، ويقلِّهـا مـن الأرض، ثم لا يـزال ينهشـها طـولاً وعرضـاً، ورفعـاً وخفضـاً، حـتى يـأتي عليهـا جميعـاً. ثم لا يقـع غضـبه إلا علـى الأنصـاف والأثـلاث، ولم يفصـل تمـرة قـطُّ عـن تمـرة. وكـان صـاحب جُمَـلٍ ولم يكـن يرضـى بالتفـاريق. ولا رمـى بنـواة قـط، ولا نـزع قمعـاً، ولا نفـى عنـه قشـراً، ولا فتَّشـه مخافـة السـوس والـدود، ثم مـا رأيتـه قـطُّ إلا وكأنَّـه طالـب ثـأر، وشحشـحان صـاحب طائلـة[١١٧]. وكأنَّـه عاشـق مغتلم، أو جائع مقرور[١١٨].

(١١٦). ذراه ذرواً: أي أطاره عن المائدة.

(١١٧). الشحشحان: ذو غيرة على حق يطلبه. الطائلة: الثأر.

(١١٨). البخلاء . ص ١١٤/١١٥.

الفصل الرابع

أصالة الجاحظ في التهكم

بواعث التهكُّم

أولاً: التهكُّم بالطبع

ثانياً: تهكُّم التَّشفِّي

وظائف التَّهكُّم

أولاً: الشجب

ثانياً: الدفاع عن الذات.

لقد رزق الجاحظ حسَّ اكتشاف الجوانب المضحكة في طبائع الناس، كما رزق روحاً تهكُّمية نادرة تتناقض بصورة فريدة وابتذال المهرجين والمحترفين الذين كان يشعر بدافعٍ لمعاشرتهم ومصادقتهم.

شارل بللا

التَّهَكُّم في أصل ما اجتمع له من اللغة والاصطلاح هو الإزراء والعبث بالمتهكَّمِ به، الذي يُشترط أن يكون إنساناً، فلا تَهَكُّم بحيوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ، والتَّهَكُّم بما هو كذلك يقوم إمَّا على إرسال القول على غير وجهه كأن تقول قولاً وأنت تقصد ضدَّهُ. ومن ذلك قولك: «عظيم!!»، وأنت تقصد: «ما أسوأ ذلك». أو أن تقول: «خيرُ ما فعلت»، ومرماك: «أسوأ ما فعلت»... وغير ذلك من أمثاله. وإما أن يقوم على المبالغة المقصودة في الوصف أو التَّقدير إلى حدِّ الطَّرافة والشُّذوذ. وقد يكون وصف أشكالٍ أو أفعالٍ. أما موضوع التَّصوير فقد يكون موجوداً في الموصوف حقًّا وقد لا يكون، فإن كان موجوداً كان التَّهَكُّم بالعَبَثِ به تطويلاً وتقصيراً وتقريباً وتبعيداً، تماماً كما يفعل الرسَّام السّاخر «رسام الكاريكاتير»، وإن لم تكن موجودةً كان المراد منها تركيب صورةٍ

مسخيَّةٍ أو هزليَّةٍ أو ساخرةٍ... من خلال تناقض أبعادها وعدم توافق تراكيبها، وبذلك فالتَّهَكُّم بعيد عن الموضوعية بالضّرورة[١١٩].

ولذلك يجوز لنا القول إنَّ «التَّهَكُّم شكلٌ من أشكال الكَذِبِ. إنَّه الكذب الذي لا يرمي إلى الخداع دائماً، على الرَّغْمِ من أنَّه يرمي غالباً إلى الخداع. إنَّه يفترض، ككلِّ كذب، تناقضاً بين التَّعبير وبين جزءٍ من الفكرِ على الأقل، وإنَّ التَّهَكُّم يعرف، بوجهٍ عامٍّ، هذا التَّناقض، بل ويرضى به، ويقدِّر شأنه ومداه، ويستخدمه ابتغاء غايةٍ جماليَّةٍ أو عمليَّةٍ»[١٢٠].

«وهناك أنواعٌ من التَّهَكُّم ليست كلَّها صالحةً بالطبع، هناك تهكُّم سمجٍ ثقيلٍ منحطٍّ، وتهكُّمُ مجنَّحٍ رهيفٍ، هناك تهكُّمُ شرِّيرٍ، وتهكُّمُ مزدرٍ أو عطوفٍ، هناك تهكُّمُ ساذجٍ وتهكُّمُ عليمٍ؛ هناك تهكُّمُ عدوٍّ للإنسانيَّة وتهكُّم محبِّها. هناك تهكُّم القاتل الذي يسخر من ضحيته، والتَّهَكُّم الذي قد يوحي إلى مُثل **جان هوس** Jean Huss. على محرقته... ومهما تفاوتت أنواع التَّهَكُّم فإنَّها تصدر عن طبيعة من يستخدمها وتتأثَّر بظروف حياته. فكلُّ إنسانٍ يذود عن نفسه كيفما يستطيع»[١٢١].

إنَّ ما سبق وأسلفناه يطرح على بساط بحثنا مسألتين نعتقد أنَّ الضَّرورة تلحف علينا أن نسلِّطَ عليهما ولو بقعة صغيرة من الضَّوء، وهما وظائف التَّهَكُّم وبواعثه، ونجدنا مضطرين هنا أيضاً إلى بسط ديباجتنا القديمة ذاتها، التي تصرُّ

---

(١١٩). عزت السيد أحمد: **التَّهَكُّم وفن الإضحاك عند التوحيدي**. ص ٨٧.

(١٢٠). الدكتور عادل العوا: **دراسات أخلاقية**. ص ٣٩٩.

(١٢١). م. س. ذاته.

على عدم القبول بالتَّفاصل القطعيِّ بين الوظائف والبواعث، فهما ترفدان بعضهما بعضاً تكاملاً وتواصلاً.

بواعث التَّهَكُّم

كما أنَّ الضَّحك جزءٌ من طبائع الإنسان كذلك شأن التَّهَكُّم، ولكنَّهُ يختلف عنه من حيث مبدأ ارتباط النَّعت بالمنعوت، فالضّحك خاصَّةُ جِنْسٍ، ولكن التَّهَكُّم خاصَّة فردٍ، ويشبه ذلك العلاقة بين التذُّوق الفني والجمالي، والإبداع؛ فالتَّذوق خاصَّةٌ عامَّةٌ للإنسان، وإن تفاوتت وتباينت، أمَّا الإبداع فهو خاصَّةُ أفراد. بمعنى أن التَّهَكُّم فنٌّ، والفنُّ بحاجةٍ إلى موهبةٍ والموهبةُ لا توجد عند كلِّ النَّاس.

فالتَّهَكُّم إذاً واحدٌ من فنون الإضحاك وأساليبه، وأن تجعل إنساناً أضحوكة لك أو لغيرك فهذا يعني أن تخفضه دونك ودون الآخرين، وخفض الآخر يقابله التَّعالي عليه، والتَّعالي إمَّا أن يكون طبعاً أو أن يكون تشفِّياً، فإن كان طبعاً كان أصله إما تكبُّراً أو غروراً أو ميلاً إلى الدَّعابة والفكاهة. وإن كان تشفيَّاً إمَّا أن يكون حقداً أو حسداً أو هزءاً أو استنكاراً لأمرٍ غير مقبولٍ ولا مستساغٍ. ولعلَّنَا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ **الجاحظ** قد حوى ذلك جميعه تقريباً في شخصه.

أولاً: التَّهَكُّم بالطبع

يؤكد **الجاحظ** أنَّ من كان فيه طبع التَّهَكُّم واصطناع الفكاهة يصعب عليه التَّخلِّي عن هذا الطَّبع وإن غلا ثمنه أَو عَظُمت عواقبه، ويورد حادثةً طريفةً تؤكِّد هذا الرَّأي، وتعبر عن إيمانه بهذه الحقيقة، يقول: «كان رجل من أهل السَّواد (فلاحي أرض العراق وزرَّاعها) يتشيَّع، وكان ظريفاً، فقال ابن عمٍّ له:

بَلَغَنِي أنَّك تبغض **عليًّا**؟ والله لئن فعلت لتردنَّ عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك!

فقال: والحوض في يده يوم القيامة؟

فقال: نعم

فقال: وما لهذا الرَّجل الفاضل يقتل النَّاس في الدُّنيا بالسَّيف، وفي الآخرة بالعطش؟!!

فقيل له : أَتقول هذا مع تَشَيُّعِكَ ودينك ؟!

فقال: والله لا تركت النَّادرة ولو قتلتني في الدُّنيا وأدخلتني النَّار في الآخرة»[١٢٢].

و**الجاحظ** ذاته مطبوعٌ على حبِّ التَّهَكُّم واصطناع الفكاهة «فقد رُزِقَ حسَّ اكتشاف الجوانب المضحكة في طبائع النَّاس، كما رُزِقَ روحاً تهكُّميَّةً نادرةً تتناقض بصورةٍ فريدةٍ وابتذال المهرِّجين والمحترفين الذين كان يشعر بدافعٍ لمعاشرتهم ومصادقتهم»[١٢٣] هذا الحسُّ الذي وإن تنامى وتطوَّرَ واغتنى مع الأيام فإنَّهُ لم يأت طارئاً ولا عارضاً وإنَّما «ظَهَرَ ميله إلى الاستهزاء منذ غضاضة عوده، واستحكم فيه هذا الميل بعد أن تهيَّأت له أسباب التَّهَكُّم بحذافيرها، فقد خُلِقَ مطبوعاً على هذا التَّهَكُّم، وقَوَّت فيه ثقافته هذا الطبع»[١٢٤]، «ويجدر بنا ألا ننسى أنَّهُ عاش في البصرة في وسطٍ سادت فيه الخفَّة والتَّهَكُّم، وعمَّه الميل إلى

(١٢٢). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٢٣.

(١٢٣). شارل بللا: **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** . ص ٣٧٢/٣٧٣.

(١٢٤). شفيق جبري: **الجاحظ معلم العقل والأدب** . ص ١٩٥.

العبث والتَّندر، ومن هنا نشأَ ميله إلى المزاح، شريطة ألا يخرج عن حدوده»[١٢٥].

وربَّما كان لشعوره بمقدراته ومواهبه وأهميتها دوراً في هذا الميل والتوجه، ويؤكِّد لنا هذه الحقيقة عَبْرَ تهكُّم لطيف شكلاً، لاذعٍ مضموناً، فقد «دخل عليه رجل فقال له:

يا **أبا عثمان**، كيف حالك؟

فقال **الجاحظ**: سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً. حالي أن الوزير يتكلَّم برأي وينفِّذ أمري، ويواتر الخليفة الصِّلات إليَّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثِّياب أفخرها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثُمَّ أصبر على هذا حَتَّى يأتي الله بالفرج.

فقال الرَّجل: الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحبُّ أن تكون الخلافة لي، ويعمل **محمد بن عبد الملك** بأمري ويختلف إليَّ، فهذا هو الفرج»[١٢٦].

لا تفوتنا هنا الإشارة إلى أنَّ ما يعنيه التَّهَكُّم بالطبع أنَّه مرتبطٌ بسرعة البديهة في الرَّدِّ ونوعيَّة الرَّدِّ التي قد تكون مثل الصَّفعة على الخدِّ أحياناً وقد تكون شبه وخزة، مما يدور في رحاب ما أسلفناه في التَّهَكُّم. ولذلك فإنَّ المطبوع على التَّهَكُّم مغرمٌ به، وغالباً يأتي منه عفو البديهة سهواً رهواً من غير تكلُّف، ومن ذلك نورد بعض هذه الطَّرائف الجاحظيَّة في التَّهَكُّم:

---

(١٢٥). شارل بللا: **الجاحظ** . ص ٣٧٣.

(١٢٦). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٤٧.

. قال **أبو العيناء**: كان **الجاحظ** يأكل مع **محمد بن عبد الملك الزَّيات** فجاؤوا بفالوذجة، فتولَّم **محمد بأبي عثمان الجاحظ** وأمر أن يُجعل من جهته ما رقَّ من الجام، فأسرع في الأكل فتنظَّف ما بين يديه، فقال **ابن الزيَّات**: تقشَّعت سماؤك قبل سماء النَّاس؟ فقال **الجاحظ**: لأنَّ غيمها كان رقيقاً!!(١٢٧).

. قال **الجاحظ**: نزلت على صديقٍ لي فلم آكل عنده لحماً، فعرضت له، فقال: إنِّي لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث: « ***إنَّ اللّه يكره البيت اللحم*** » فقلت: يا أخي، إنَّما أراد البيت الذي تؤكل فيه لحوم النَّاس بالغيبة!! فلم يؤخِّر حضور اللحم من ذلك اليوم»(١٢٨).

ويتابع الدكتور جميل جبر بالتعليق على هذا الخبر نقلاً عن المصدر: «وهذه إحدى معابث **الجاحظ** وتلاعبه بالكلام حَتَّى يصرفه عن وجهه، فإنَّ الحديث متواترٌ على الصِّحة. ومهما يكن من شيء فهي من ألطف النكات»(١٢٩).

. قال **أبو بكر محمد ابن إسحاق**: قال لي **إبراهيم بن محمود** ونحن ببغداد: ألا تدخل على **عمرو بن بحر الجاحظ**؟ فقلت: ما لي وله؟ فقال: إنَّك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه! فلو دخلت إليه وسمعت كلامه؟ فدخلت عليه فقدَّم لنا طبقاً عليه رطب. فتناولت منه ثلاث رطبات ثُمَّ

---

(١٢٧). م. س. ص ٢٨.

(١٢٨). م. س. ص ٢٣.

(١٢٩). م. س. ص ٢٣.

أمسكت، ومرَّ فيه **إبراهيم**. فأشرت إليه أن يمسك. فرمقني **الجاحظ** وقال لي: دعه يا فتى فقد كان عندي بعض إخواني فقدمت إليه الرُّطب فامتنع فحلفت عليه فأبى إلا أن يبرَّ قسمي بثلاثمئة رطبة!![١٣٠].

ثانياً: تهكم التَّشفِّي

«من الطَّبيعي أنَّ قيمة التَّهَكُّم هي قيمة الفكر المتهكِّم، فالتَّهَكُّم أسلوبٌ عامٌّ ممتازٌ، ولكن من الجائز أن يساء استعماله؛ إنَّهُ أسلوبٌ دفاعيٌّ قد يحمي أحياناً أشياء مؤسفة. هناك تهكُّم العاجزين الذين لا يملكون سواه؛ إنَّهُم يسخرون مما لا يستطيعون فهمه، ولا يستطيعون الشُّعور به، ولا يستطيعون فعله. وهم بالتَّهَكُّم يردُّون جميع الأفكار وجميع العواطف العليا التي تغزوهم وهم يقصِّرون عن استقبالها واحتضانها. إنّهم يحاولون، هم أيضاً، أن يجعلوا حياتهم أمراً لا يطاق، ولكننا لا نعجب بهم.

وثَمَّةَ تهكُّم أشبه بالتَّهَكُّم السَّابق، هو تهكُّم الحسَّاد. فقد نجد أناساً غير عاجزين من جهةٍ، ولكنَّهُم لا يطيقون من جهةٍ أُخْرَى إلاَّ أن يروا الآخرين عاجزين. إنَّهُم يحتاجون إلى ازدراء ما لم يستطيعون امتلاكه، وخاصَّةً عندما يرغبون فيه. ولذا فإنَّهم يحملون النَّاس، ويحملون أنفسهم، على تقدير ما يبقى لهم... وتهكم الحسَّاد هذا ـ ذائع أكثر الذيوع»[١٣١].

ولكن ليس هذا تمام تهكم التَّشفِّي ولا كلَّه، إنَّهُ أحد ضروبه التي وإن وجدت مكانها في الفلسفة الأخلاقية فإنَّها رُبَّما لا يُفسح لها في المجال للانضمام

---

(١٣٠). م. س. ص ٢٧.

(١٣١). د. عادل العوا: **دراسات أخلاقية** . ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧.

إلى رحابة الأدب، وهذا ما ليس يعنينا كثيراً الآن، وإنَّما غرضنا أن نظهر أن دائرة تهكُّم التَّشفِّي تتسع لاحتواء ضروب أخرى، هي ما يمكن أن نؤطرها بالهزء والسُّخرية بالغلط والتَّمادي والجهل والغباء وغير ذلك مما يندرج عليه حكم هذه المفاهيم، ليغدو تهكُّم التَّشفِّي بهذا المعنى نشاطاً جمالياً وأخلاقياً في آن معاً، يهدف إلى الكشف عن الانحراف ومعاقبة صاحبه معاقبةً أدبيَّةً ترنو إلى إصلاحه وتبيان خطئه، وهذا موضوع حديثنا في وظائف التَّهَكُّم، ومن تهكُّم **الجاحظ** على هذا الصَّعيد جلُّ ما قدمه في كتاب البخلاء، وكتاب التَّربيع والتَّدوير، وفي غيرهما من كتبه.

لننظر في هذا التَّهَكُّم الجاحظي. «قال: جاءني يوماً بعض الثُّقلاء فقال: سمعت أنَّ لك ألف جوابٍ مسكتٍ، فعلِّمني منها؟

فقلت: نعم

فقال: إذا قال لي شخصٌ: يا زوج.....، يا ثقيل الروح، أي شيء أقول له؟

فقلت: قل له: صدقت!!»[١٣٢].

ولنتساءل الآن، ألا يستحقُّ السَّائل مثل هذا التَّهَكُّم اللاَّذع الذي يبذُّ إيلامه إيلام لسعة السوط على الظَّهر العاري؟ لعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ السَّائل ذاته هو الذي فرض على **الجاحظ** هذا التَّهَكُّم، لأنَّه لو كان معتدلاً في سؤاله لن يبلغ التَّهَكُّم به ما بلغ جرَّاء هذا السُّؤال.

ويستفتح **أبو عثمان** رسالة التَّربيع والتدوير، هذا العنوان التَّهَكُّمي بحدِّ ذاته، بتهكُّمٍ طريفٍ بديعٍ، لعلَّهُ من الآيات الجمالية الفريدة في النثر العربي

(١٣٢). جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٢٥.

فيقول[١٣٣]: كان **أحمد بن عبد الوهاب** مفرط القصر، ويدَّعي أنَّه مفرط الطول. وكان مربَّعاً، وتحسبه لسعة جفرته[١٣٤]، واستفاضة خاصرته، مدوَّراً. وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدَّعي البساطة والرَّشاقة، وأنَّه عتيق الوجه، أخمص[١٣٥] البطن، معتدل القامة، تام العظم. وكان طويل الظَّهر، قصير عظم الفخذ، وهو، مع قصر عظم ساقه، يدَّعي أنه طويل الباد[١٣٦]، رفيع العماد، عاديُّ القامة، عظيم الهامة، قد أعطي البسطة في الجسم، والسعة في العلم. وكان كبير السِّنِّ، متقادم الميلاد، وهو يدَّعي أنَّه معتدل الشباب، حديث الميلاد.

وكان ادِّعاؤه لأصناف العلم على قَدْرِ جهله بها، وتكلُّفه للإنابة عنها على قدر غباوته عنها. وكان كثير الاعتراض، لهجاً بالمراء، شديد الخلاف، كَلِفاً بالمجاذبة، متتابعاً في العنود، مؤثراً للمغالبة، مع إضلال الحجَّة، والجهل بموضع الشُّبهة، والخطرفة عند قصر الزَّاد، والعجز عند التَّوقُّف، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء، ومغبَّة فساد القلوب، ونكد الخلاف، وما في الخوض من اللغو الدَّاعي إلى السَّهو، وما في المعاندة من الإثم الدَّاعي إلى النَّار، وما في المجاذبة من النَّكد، وفي التَّغالب من فقدان الصَّواب.

وكان قليل السَّماع غمراً، وصحفياً[١٣٧] غفلاً، لا ينطق عن فكر، ويثق بأوَّل خاطر، ولا يفصل بين اعتزام الغمر، واستبصار المحقِّ،

---

(١٣٣). الجاحظ: **التربيع والتدوير** . ص ٩. ١١.

(١٣٤). الجفرة: جوف الصدر.

(١٣٥). أخمص البطن: خالي البطن، ضامر.

(١٣٦). الباد: جانب الفخذ من الداخل.

(١٣٧). الصحفي: من يأخذ العلم عن صحيفة لا عن أستاذ، ومن يخطئ في قراءة الصحيفة.

يعدُّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلَّق منهم بسبب. وليس في يده من جميع الآداب إلاَّ الانتحال لاسم الأدب.

وظائف التَّهَكُّم

بأخذ بواعث التَّهَكُّم بعين النَّظر يمكننا الحديث على وظائفه باختصارٍ نظراً لوثيق التَّرابط بينهما، بل وحَتَّى التَّشابه. ولكنَّ ذلك ليس يعني أنَّه في مكنتنا استنتاج إحداهما من الأخرى استنتاجاً منطقيًّا أو رياضيًّا، أو أن نربط باعثاً ما بوظيفة ما، هكذا، بطريقةٍ ساذجةٍ أو عشوائيَّةٍ.

قد تكون وظائف التَّهَكُّم كثيرة، ولكن بالإمكان إجمالها في وظيفتين محوريتين، يمكن أن تنشعب كلٌّ منهما إلى أفرع مختلفة. وهاتان الوظيفتان هما الشَّجب بمعناه الواسع بوصفها دالَّةً متعدِّدة الأسهم المؤشرة على معان ومقاصد متباينة. والدِّفاع عن الذَّات بالمعنى الأوسع شمولاً.

أولا: الشجب

لنأخذ هذه الوظيفة بالطَّريقة التي حدَّدها **أناتول فرانس** Anatole France الذي يضمُّه بعضهم إلى كوكبة حذَّاق المتهكِّمين في التَّاريخ، يقول: «لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددتُ اعتقاداً أنَّ من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها: التَّهَكُّم والشَّفقة. فالتَّهَكُّم بابتسامةٍ يحبِّب إلينا الحياة، والشّفقة بدموعها تقدِّس هذه الحياة، والتَّهَكُّم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة، إنَّه لا يستهزئ بالحبِّ والجمال، فهو رقيقٌ وفيه عطف، فضحكه يكظم من

الغيظ، وهذا هو التَّهَكُّم الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى، ولولاه لأفضى بنا الضَّعف إلى كراهيتهم»(١٣٨).

يبدو أن الوظيفة التي أناطها **أناتول فرانس** بالتَّهَكُّم هي إضفاء مسحةٍ جماليَّةٍ على الحياة برفٍّ رفيف الفكاهة على النفوس. وذلك بشجب أفعال الأشرار وسخافات الحمقى بطريقةٍ أنيقةٍ خاليةٍ من القسوة والعنف، بل مفعمة برهافة الجمال وشفافيته. ولهذا الغرض خصَّ **الجاحظ**، في اعتقادنا، كتاب البخلاء على أقلِّ تقدير، ثُمَّ ما وشَّى به بقيَّة كتبه. وسنعرض فيما يلي لأنموذجين من التَّهَكُّم الجاحظي الذي يشرئب إلى تحقيق هذا الغرض الوظيفي للتهكم، أولهما حوار وثانيهما سلوك تهكُّمي يتشفَّى من موقف غير لائقٍ ولا محمود.

حدَّث **سلام بن يزيد** قال: قصدت بغداد فسألت عن **الجاحظ** فقيل لي: هو بسرَّمن رأى. فاصعدت إليها، فقيل لي: قد انحدر إلى البصرة، فانحدرت إليها. وسألت عن منزله فأرشدت إليه، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبيًّا ليس فيهم ذو لحية غيره، فدهشت، فقلت: أيكم **أبو عثمان؟**

فرفع يده وحرَّكها في وجهي وقال: من أين؟

قلت: من الأندلس.

فقال: طينة حمقاء. فما الاسم؟

قلت: **سلام**.

فقال: اسم كلب الطرَّاد، ابن من؟

---

(١٣٨). شفيق جبري: **الجاحظ معلم العقل والأدب**. ص ١٩٢.

فقلت: ابن زيد.

فقال: بحقِّ ما صرت أبو من؟

فقلت: أبو خلف.

فقال: كنية قرد زبيدة. ما جئت تطلب؟

فقلت: العلم.

فقال: ارجع بوقتك فإنَّك لا تعلم.

فقلت له: ما أنصفتني! فقد اشتملت على خصال أربع: جفاء البلدية، وبعد الشقة، وعزَّة الحداثة، ودهشة الداخل.

فقال: فترى حولي عشرين صبيًّا ليس فيهم ذو لحية غيري، أكان يجب أن تسأل: أيكم **أبو عثمان؟**[١٣٩].

أما السلوك التهكمي فقد قال: صحبني **محفوظ النقَّاش** من مسجد الجامع ليلاً. فلمَّا صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده وقال: أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نارٌ، وعندي لِبأ[١٤٠] لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا لك.

فملت معه. فأبطأ ساعةً ثُمَّ جاءني بجام لِبأٍ وطبق تمرٍ، فلمَّا مددت يدي قال: يا **أبا عثمان** إنَّه لِبأٌ وغِلَظُه[١٤١]، وهو الليل وركوده، ثمَّ ليلة مطرٍ ورطوبة، وأنت رجلٌ قد طعنت في السِّنِّ، ولم تزل تشكو من الفالج طَرَفاً، ومازال

(١٣٩). جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ١١/١٠.

(١٤٠). اللبأ: أول اللبن (الحليب) عند الولادة.

(١٤١). غلظه: ثقلهُ على المعدة.

الغليل[١٤٢] يسرع إليك. وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء. فإن أكلت اللِّبأ ولم تبالغ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً، وحرَّشت طباعك[١٤٣]، ثُمَّ قطعت الأكل أشهى ما كان إليك. وإن بالغت بتنا في ليلة سَوْءٍ، من الاهتمام بأمرك. ولم نعدَّ لك نبيذاً ولا عسلاً. وإنَّما قلت هذا الكلام، لئلا تقول غداً: كان وكان. والله قد وقعت بين نابي أسدٍ، لأنِّي لو لم أجئك به، وقد ذكرته لك، قلت: بخل به وبدا له فيه. وإن جئت به، ولم أحذِّرك منه، ولم أذكِّرْك كلَّ ما عليك فيه، قلت: لم يشفق عليَّ ولم ينصح. فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً. فإن شئت فأكلة وموتة، وإن شئت فبعض الاحتمال، ونوم على سلامة.

ولكنَّ **الجاحظ** لم يترك الأمر يمرُّ هكذا فعقَّب قائلاً: فما ضحكت قطُّ كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنَّشاط والسُّرور، فيما أظنُّ. ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلَّم به لأتى عليَّ الضحك، أو لقضى عليَّ. ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب[١٤٤].

إنَّ سلوك **الجاحظ** التَّهَكُّمي يتجلَّى هنا في سرعة استجابته لدعوة الرَّجل له في منتصف الليل وهو يعلم أنَّ ذلك إنَّما كان من باب المجاملة واللباقة أو تخوفاً مما قد يبدر من **الجاحظ** من تعليقٍ أو قولٍ يعيب الرَّجل لأنَّهُ لم يدعه. ويتجلَّى أيضاً في أنَّه، على الرَّغْمِ من كلِّ ما أفاض به الرَّجل من الحديث عن مساوئ

---

(١٤٢). الغليل: شدَّة العطش.

(١٤٣). حرشت طباعك: أراد هيَّجت شهوة الأكل في نفسك.

(١٤٤). الجاحظ: **البخلاء** . ص ١٧٥/١٧٦.

هذا الطَّعام ومضاره عليه، فقد أصرَّ على تناوله، ولتأكيد تهكُّمه لم يكتف منه بقليل بل أتى عليه كله.

ثانياً الدِّفاع عن الذات

لا يتوقَّف تهكُّم الدِّفاع عن الذَّات عند ردود الأفعال التَّهَكُّمية الصَّادرة عن الحسَّاد وأضرابهم، ولا يختصُّ بتهكُّم الخائفين مما يهدِّدهم عند افتقارهم إلى الوسائل الدِّفاعية الأخرى. لقد قصدنا بهذا الضَّرب من التَّهَكُّم . بوصفه وظيفة له . كلَّ تخلُّص تَهَكُّميٍّ من أيِّ مأزقٍ حرجٍ سواء أكان حرج الحاسد أمام ذاته من محسوده أم كان تهرُّباً من قول حقٍّ، أو فِراراً من مهمَّة، أو تَمَلُّصاً من واجبٍ غير مستحبٍّ أَو غير مرغوبٍ في تأديته...«ولا يقتصر التَّهَكُّم على أن يكون دفاعاً عن الذَّات ضدَّ الآخرين وإنَّما قد يكون كذلك دفاعاً عن الذَّات ضدَّ الذَّات وضدَّ ذوات الآخرين»(١٤٥).

ولكن، ما لا بُدَّ من الإشارة إليه هنا، هو «أنَّ التَّهَكُّم . هذا . لا يقود بالضَّرورة إلى سوء النِّية والشَّراسة حتماً. فهو ليس بالضَّرورة موقف امتهانٍ وترفُّعٍ واحتقارٍ. وربَّما صحبته مشاعر الطِّيبة والتَّعاطف والصَّلاح. ومن الملاحظ أنَّ التَّهَكُّم يحمي الضَّعف أيضاً»(٢٧) وهذا ما ينطبق على أنموذجنا الآتي من نماذج التَّهَكُّم الجاحظي الذي يؤدِّي وظيفة الدِّفاع عن الذَّات ليحمي ضعفها أمام جبروت السُّلطان.

«كان **الجاحظ** ذا حظوةٍ فريدةٍ عند خلفاء بني العباس، فكانوا يكبرون شأنه ويحترمون معارفه الواسعة، ويقدِّرون ما طُبِعَ عليه من لُطْفِ المعشر ولذعة

(١٤٥) . د. عادل العوا: **دراسات أخلاقية** . ص ٤٠٧.

(٢٧) . د. عادل العوا: **دراسات أخلاقية** . ص ٤٠٧.

النكتة، فلَّما ظهرت العداوة بين الوزيرين **ابن الزيَّات والقاضي أحمد بن داؤد** آثر **أبو عثمان** صداقته الأول فبقي وفيًّا له حتَّى قُبِضَ عليه ففرَّ **الجاحظ** فسأله الوزير لَمَّا جِيء به إليه مكبَّلاً: لِمَ هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التَّنور»[١٤٦] إشارة إلى التَّنُّور الذي صنعه **ابن الزيَّات** وجعل في جوفه المسامير ليعذب به خصومه، فعُذِّبَ هو فيه حَتَّى مات وهذه قِصَّةٌ طويلةٌ فيها أكثر من موقف تهكُّمي أو مضحك من هذا النوع.

(١٤٦). جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ١٣.

الفصل الخامس

الجاحظ والتهكم الذاتي

تَصَالُحُ الأَضْداد

البَادِئُ أَظْلَم

وَاحِدَة بوَاحِدَة

سُلْطَانُ الذُّبَّان

قيل لأبي هفَّان لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا وبالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنَّ بيت في ألف سنة .

ياقوت الحموي

إنَّ براعة **الجاحظ** التَّهَكُّميَّة . التي سَبَقَ الحديث فيها . حَدَتْ **بشارل بللا** . Charles Pellat إلى القول بأنَّ **الجاحظ** هو نَسِيْجُ وَحْدِهِ في هذا الباب ، وذهب إلى الظنِّ بأنَّ تهكُّمه ذاتيٌّ، وأنَّ ملاحظته وتصويره عيوب معاصريه يجعلانه أقرب إلى **لابرويير** . La Bruyére **وموليير** . Moliére منهما إلى غيره من كتَّاب العربيَّة(١٤٧).

إن التَّهَكُّم الذَّاتي الذي قصده الباحث الفرنسي غير التَّهَكُّم الذَّاتي الذي عنونا به هذا الفصل، ذلك أنَّه يريد من الذَّاتية إضفاء إحساسه وخصائص شخصيَّتِهِ على تَهَكُّمِهِ ليغدو الذَّاتي بهذا المعنى مقارناً للنَّزعة أو الاتجاه الذَّاتي في الاصطلاح الفلسفيِّ، أمَّا نحن فإنَّنا نقصد بالتَّهَكُّم الذَّاتي ضرباً جديداً من التَّهَكُّم هو جَعْلُ الذَّاتِ موضوعاً يَتَهَكَّمُ به صاحبها. وهذا من الطَّرافة والأصالة

(١٤٧) . شارل بللا: **الجاحظ**... . ص ٣٧٣.

والجدَّة بباب ما يستحقُّ وقفة تأمُّلٍ وتفكُّرٍ طويلةٍ، وخاصَّةً أنَّه قلَّ نظيره ونَدَرَ في التُّراث الإنسانيِّ.

لا شكَّ في أنَّنا إذا تكلَّفنا عناء البحث والتَّفتيش فإنَّنا سنجد في بطون الكتب وفي متون غرائب الأخبار طرائف ونوادر من التَّهَكُّم الذَّاتي، ولَعَلَّ أوَّل ما يَخْطِرُ في بالنا هنا هو قِصَّةُ **الحطيئة** عندما ضاقت به نفسه لهجوٍ في خياله ليس يدري لمن يقوله، حَتَّى وصل إلى بركة ماء فرأى فيها وجهه فأكمل فكرته وقال:

أَبَتْ شَفَتَايَ اليَوْمَ إلاَّ تَكُلُّما
بِهَجْوٍ وَلا أَدرِي لمن أَنَا قَائلهْ
أَرى لِيَ وَجْهاً قَبَّح الله وَجْهَهُ
فَقُبِّحَ مِن وجهٍ وقُبِّحَ حاملهْ

طبعاً، لا نريد أن نحلِّل هذين البيتين أو نناقشهما، ولكن لا بُدَّ أن نشير إلى أنَّهُمَا ليسا نتيجةً لضيق نَفَسِ الشَّاعر لأنَّهُ لم يجد من يهجوه ففرَّج عن نفسه بهجو نفسه، وإنَّما هو تندُّرٌ من الشَّاعر طريفٌ غريبٌ. وعلى نحوٍ مشابهٍ لهذه القصَّة نجد تندُّر الأديب السَّاخر **برنارد شو** في قصته مع المرأة الجميلة التي قالت له: ما رأيك لو أنَّنا تزوَّجنا بعضنا بعضاً؛ أنت رجلٌ ذكيٌّ جدًّا، وأنا امرأةٌ جميلةٌ جدًّا. فيأتي ابننا وارثاً الجمال عنِّي والذَّكاء عنك، فيكون أعجوبة زمانه.

فعلَّق **برنارد شو** قائلاً: أخاف أن يرث الجمال عنِّي والذَّكاء عنك فيكون أضحوكة أهل زمانه.

وهذا **نابليون** يعلِّق تعليقاً طريفاً لا يخلو من تهكُّم بالذَّات إذ يقول: «سيصرخ العالم بعد موتي قائلاً: أوف»(١٤٨).

ولكنَّ تهكُّماً بالذَّات على النَّحو الذي افتنَّه **الجاحظ** وَبَرَعَ فيه حَتَّى استطاع بجدارةٍ وحقٍّ أن ينتزع الضِّحك من أفواهنا انتزاعاً في الوقت الذي يزيد صاحبه من نفوسنا اقتراباً وفي قلوبنا حبًّا ووداداً، لأنَّ تهكُّمَهُ هذا تهكُّم حاذقٍ خبيرٍ، وبارعٍ قديرٍ، لا تهكُّم السَّاذج أو الغرِّ أو الأحمق. وإن كان قد أطرب نفوسنا ببديع شدوه ورنيم عزفه على أوتار حماقات هذه الفئة من النَّاس، وكأَنَّهُ لا يريد أن يفوِّت على قرَّاء كتبه فرص الاستمتاع بكلِّ صنوف الفكاهات والطَّرائف الصَّادرة عن مختلف شرائح المجتمع وفئاته وأفراده، حَتَّى ما كان منها على ذاته.

إنَّ تَهَكُّم **الجاحظ** الذَّاتي، وهذا ما سيتضح لنا جلياً في أثناء عرضه، ينبي عن خصائص وسمات أخلاقيَّةٍ رفعيةٍ ومستحبَّةٍ ومحمودةٍ، نتمنَّى وجودها لدى كلٍّ منا؛ كالأريحيَّة في التَّعامل مع الذَّات والآخرين، والبساطة في ذلك بعيداً عن عُقَدِ النَّقص والقصور ومتاهات الخداع والتضليل التي قلَّما وجدنا من تعافى منها، كُلَّها أو بعضها، كما يكشف هذا التَّهَكُّم عن تواضعٍ جليلٍ، وصدقٍ نبيلٍ، وأمانةٍ في النَّقل والتَّصوير، وبالمختصر؛ لم يكن التَّهَكُّم الذَّاتي عند **الجاحظ** لمحض الإضحاك أو تكميل سلسلة ضروب فنون الإضحاك، وإنَّما كان مؤشِّراً على مجموعةٍ من الخصال الأخلاقيَّة اللطيفة الظَّريفة، وحَتَّى وإن كان غرض **الجاحظ** من ذلك محض الإضحاك فإننا لا نستطيع إلا أن نؤكِّد ما تؤشِّر إليه

(١٤٨). د. عادل العوا: **دراسات أخلاقية** . ص ٤٠٥ .

من الخصال الأخلاقيَّة السَّالفة الذِّكر، وفي النَّماذج التَّالية ما يؤَكِّد هذا الاتِّجاه خير التَّأكيد.

تصالح الأضداد

كلُّ إنسانٍ معرَّضٌ للمرض على اختلاف ضروبه وتباين آلامها، ولكلِّ إنسانٍ أسلوبه وطريقة تعامله مع المرض، ولكن قلَّ ونَدَرَ كلَّ النُّدْرَةِ أن تجد من يتعامل مع مرضه لا بروح تفاؤليَّة وإنَّما بِنَفَسٍ دعابي فَكِهٍ مثل **الجاحظ**، فها هو يصوِّر حاله، بعد أن أصابه الفالج، تصويراً تهكميًّا لطيفاً فيقول: « قد اصطلحت الأضداد على جسدي، إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي»(١٤٩).

لقد وَصَفَ بعضهم نُكَتَ **الجاحظ** بأنَّهَا صعبةٌ حيناً وممتنعةٌ على بعض الأذهان ضيِّقةِ الأفق أحياناً، والحقُّ أنَّهُم لم يتعدُّوا الصَّواب في ذلك، فلَعَلَّكَ قرأت له طرفةً أو نكتةً من دون أن تجد فيها، ما يدعو إلى الضَّحك ولكنَّكَ إن أمعنت التَّفكير فيها وتفقَّهتها ستجد نفسك مرغماً على الضَّحك، ولَعَلَّ هذا التَّهَكُّم من هذا النَّوع، فهو يحتاجُ إلى نوعٍ من خصوبة الخيال في تتبع الحال، انظر إلى تركيبته التَّهَكُّمية البديعة أولاً، إنَّ الأضداد لا تتصالح ولا تتوافق، ولكِنَّها اتَّفَقَتْ وتضافرت عند **الجاحظ** في مرضه فأوقعته في تناقضٍ رهيبٍ، إن أكل بارداً أخذ الألم برجله وإن أكل حاراً أخذ الألم برأسه، ولَعَلَّهُ قَصَدَ بالحارِّ والبارد أمزجة الأشياء التي إما أن تكون حارةً أو باردةً وعندها ستكون الطَّامة الكبرى والمصيبة العظمى. لأنَّه لا شيء يكون إلا بارد المزاج أو حارَّه.

---

(١٤٩). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٣١.

ويصوِّرُ تصالح الأضداد في جسده مرَّة أخرى وبصورة متباينة لا تقلُّ إضحاكاً عن الأولى إن لم تفقها في ذلك، قال **أبو العباس المبرد**: «عدت **الجاحظ** فسمعته يقول: أنا من جانبي الأيسر مفلوجٌ، فلو قُرِضَ بالمقاريض ما علمت، ومن جانبي الأيمن منقرسٌ، فلو مرَّ بي الذبَّان لأَلِمْتُ، وبي حصاة لا ينسرح البول معها، وأشدُّ ما عليَّ سِتٌّ وتسعون (عمره حينها)[١٥٠].

لاحظ في التَّهَكُّم السَّابق كيف أنَّ السِّن لم تُغَيِّر من روحه المرحة وميله إلى الدَّعابة والفكاهة، حَتَّى على ذاته، وهذا هو أيضاً في أواخر عمره يصوِّر ذاته صورةً تهكُّمِيَّةً بديعةً، ولكِنَّها بِقَدْرِ ما تستثيره من الضَّحك فإنَّها تنتزع الشَّفقة والحسرة على ما آل إليه، قال **يموت بن المزرع** (ابن أخت **الجاحظ**): «إنَّ **المتوكل**، في السَّنَةِ التي قُتِلَ فيها، وَجَّه إلى **الجاحظ** أن يُحمل إليه من البصرة، فوجده لا فضل فيه، فقال لمن أراد حَمْلَهُ، ما يصنع بامرئ ليس بطائل، ذي شقٍّ مائل، ولعاب سائل، وفرج بائل، وعقلٍ زائل، ولونٍ حائل؟»[١٥١].

البادئ أظلم

ومن بدائع تهكُّمه الذَّاتي وروائعها قِصَّتَاه فيمن أخجله وغلبه، ولطرفتهما فقد شاعتا شيوعاً كبيراً حَتَّى تكاد لا تجد مثقفاً ورُبَّما غير مثقف إلا وقد حفظ إحداهما على أقل تقدير، ونتركه يرويها لنا بذاته.

---

(١٥٠). م. س . ص ٣١.

(١٥١). ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** . ج ١٦ . ص ١١٣. وكذلك في **وفيات الأعيان** لابن خلكان . ج ٣. ص ١٤٣ . وكذلك في **نوادر الجاحظ** . ص ١٢.

قال: ما أخجلني أحدٌ إلا امرأتان، رأيت إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنتُ على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت لها: انزلي كلي معنا، فقالت: اصعد أنت حَتَّى ترى الدُّنيا!!

وأما الأُخْرَىٰ:

فإنَّها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغٍ يهودي وقالت له: مثل هذا!!! وانصرفت. فسألته عن قولها فقال: إنَّها أتت إليَّ بفصٍّ وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان! فقلت لها: يا ستي ما رأيت الشَّيطان؟!! فأتت بك وقالت ما سمعت؟!! (١٥٢).

لاحظ هذه الأريحيَّة في نقل الخبر والتَّعامل معه وكأَنَّهُ انتزع ذاته من ذاته ليجعلها موضوعا لهزئه وسخريته، وكأَنَّ هذا القبيح كلَّ القبح هو شخصٌ آخر غيره، وتزداد حيرةً وضحكاً في آن معاً عندما تعلم أنَّه قال في غير هذا الموضع: «إنَّ ضرب المثل بقبح الشَّيطان دليل على أنَّهُ في الحقيقة أقبح من كلِّ قبيح»(١٥٣).

وها هو يعرض علينا أيضاً موقفاً أشدَّ إحراجاً وأعمق تهكماً وهو المحرج وهو موضوع التَّهَكُّم، ولكنَّه لا يجد حرجاً من إطلاعنا عليه، بشقيه، وكأن المحرج والمتهكَّم به شخص آخر لا علاقة له **بالجاحظ**.

قال: ما غلبني أحد إلا رجل وامرأة.

---

(١٥٢). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٢٢.

(١٥٣). الجاحظ: **الحيوان** . ج ٦ . ص ٢١٣.

فأمَّا الرَّجل فإني كنت مجتازاً في بعض الطَّريق فإذا برجلٍ قصيرٍ بطينٍ، كبير الهامة طويل اللحية، مؤتزر بمئزر، وبيده مشط يمشِّطها، فقلت في نفسي، رجلٌ قصيرٌ بطينٌ ألحى! فقلت: أيها الشَّيخ، لقد قلت فيك شعراً! فترك المشط من يده وقال: قل. فقلت:

كَأَنَّكَ صَعْوَةٌ فِي أَصْلِ حُشٍّ أَصَابَ الحُشَّ طشٌّ بَعْدَ رشٍّ(١٥٤)

فقال: اسمع جواب ما قلت: فقلت هات، فقال:

كَأَنَّكَ جُنْدُبٌ فِي ذَيْلِ كَبْشٍ تَدَلْدَلَ هَكَذَا وَالكَبْشُ يَمْشِي

وأمَّا المرأة فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق فإذا أنا بامرأتين، وكنت ركبا على حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت إحداهما للأخرى، وَيْ! حمارة الشَّيخ تضرط!! فغاظني قولها فقلت لها: إنَّهُ ما حملتني أنثى قطُّ إلا ضرطت. فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت: كانت أمُّه منه تسعة أشهرٍ في جهد جهيد؟!!(١٥٥).

ولَعَلَّ قصَّتَهُ مع الجارية السندية تدخل في هذا الباب، فقد أعيته بعجزها عن النُّطق السَّليم، فاضطرته إلى الاستسلام والانسحاب.

قال: أتيت منزل صديقٍ لي فطرقت الباب فخرجت إليَّ جارية سندية فقلت : قولي لسيدك: **الجاحظ** بالباب.

فقالت: أقول الجاحد بالباب؟ على لغتها.

فقلت: لا، قولي: الحدقي بالباب.

---

(١٥٤). الصعوة: عصفورة صغيرة كثيرة الصفير. الحش: بيت الخلاء. الطش: المطر الكثير. والرش: المطر الخفيف.

(١٥٥). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ** . ص ٢٦ . ٢٧.

فقالت: أقول الحلقي بالباب؟

فقلت: لا تقولي شيئاً، ورجعت[١٥٦].

واحدة بواحدة

قال: سألني بعضهم كتاباً بالوصيَّة إلى بعض أصحابي، فكتبت له رقعةً وختمتها، فلَّما خَرَجَ الرَّجُل من عندي فضَّها فإذا فيها:

«**كتابي إليك مع من لا أعرفه، ولا أوجب حقَّه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددت لم أذمَّك**».

فرجع الرَّجل إليَّ فقلت له: كأنَّك فضضت الورقة؟

فقال: نعم.

فقلت: لا يضيرك ما فيها فإنَّهُ علامةٌ لي إذا أردت العناية بشخص.

فقال: قطع الله يديك ورجليك ولعنك.

فقلت: ما هذا؟

فقال: هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً[١٥٧].

في هذه الطُّرفة يبدو تهكُّم **الجاحظ** المزدوج، فهو يتهكَّم بمن عَهَدَ إليه بالوساطة وهو لا يعرفه، ويَتَهَكَّم بصاحبه الذي إن أقام للصحبة شأناً لم يُحْمَدْ على فعله، وإن أدار لها ظهره لم يذم على ذلك، ولكن المستوسط كان أشدَّ تهكُّما، وردَّ الصَّاع بالمكيال ذاته مضاعفاً. وعلى الرَّغْمِ من ذلك فقد تقبَّل الجاحظ جزاءه ولم يأنف من تفكيهنا به، وإمتاعنا بطرافته.

---

(١٥٦). م. س . ص ٢٤.

(١٥٧). م. س . ص ٢٢.

سلطان الذبّان

حدَّثنا **أبو عثمان** ببلاغة ناصعة وفصاحة مؤتلقة وبيان مشرق عمَّا أصاب القاضي **عبد الله بن سوار** من الذُّبَّان، وذا هو يعرض علينا قصته هو مع الذبَّان[١٥٨] بما لا يقلُّ دقَّةً في الوصف ورونقاً في التَّصوير وإمتاعاً في التَّعبير عمَّا سبق فيقول:

فأمَّا الذي أصابني أنا من الذُّبَّان، فإنِّي خرجت أمشي في المبارك أريد دير الرَّبيع، ولم أقدر على دابَّةٍ، فمررت في عشبٍ أَشِبٍ[١٥٩] ونبات ملتفٍّ كثير الذبَّان، فَسَقَطَ ذبابٌ من تلك الذُّبَّان على أنفي فطردته، لم أقدر، فتحوَّل إلى عيني، فطردته فعاد إلى مؤق عيني، فزدت تحريك يدي، فتنحَّى عنِّي بقدر شدَّة حركتي وذبِّي عن عيني. ولذبَّان الكلأ والغياض والرِّياض وَقْعٌ ليس لغيرها، ثُمَّ عاد إليَّ فعدت عليه، ثُمَّ عاد إليَّ فعدتُ بأشدَّ من ذلك، فلمَّا عاد استعملت كمِّي، فَذَبَبْتُ به عن وجهي، ثُمَّ عاد وأنا في ذلك أحثُّ السَّير، أؤمل بسرعة انقطاعه عنِّي، فلمَّا عاد نزعت طيلساني من عنقي، فذببتُ به عنِّي بَدَلَ كمِّي، فَلَمَّا عاد ولم أجد له حيلةً استعملت العَدْوَ، فَعَدَوْتُ منه شوطاً تامًّا لم أتكلَّف مثله مذ كنتُ صبيًّاً، فتلقاني **الأندلسي**: فقال لي: ما لَكَ يا **أبا عثمان**، هل من حادثة؟ قلت: نعم، أكبر الحوادث، أريدُ أنا أخرجَ

---

(١٥٨). انظر هذه القصة في: **نوادر الجاحظ**. ص ٤٩ / ٥٠.

(١٥٩). الأَشَبُ شدَّة التفاف الشجر وكثرته، ويقال: فيه موضع آشِبٌ أي كثير الشجر، وغيضة آشبة، وغيض أَشِبٌ أي ملتفٌّ.

مـن موضـع لـيس للـذبَّان علـيَّ فيـه سـلطانٌ. فضـحك حـتَّى جلـس وانقطـع عني، وما صدَّقت بانقطاعه عنِّي حتَّى تباعد جداً[١٦٠].

يبدو من هذا النصِّ المفعم بالتَّعريض التَّهَكُّمي أنَّ **الجاحظ** يمارس دور المعلم المربِّي الذي ينقل علمه ومعارفه إلى قارئه وسامعه بطريقة فنيَّةٍ ممتعةٍ، موشَّاةٍ بالطَّرافة، موشَّحةٍ بالظَّرافة، فهو بمعنى من المعاني يحكي لنا ما حدث له مع الذُّباب بوصف أنيقٍ ولفظٍ رشيقٍ وتصويرٍ دقيقٍ، ولكنَّه في الوقت ذاته يطلعنا على معارف محدَّدة، يريد نقلها لنا عن الذبَّان، من حيث شدَّة إلحاحه، وخاصَّة ذُبَّان الكلأ والغياض والرِّياض التي لها وقعٌ ليس لغيرها، وإن كان قد جعل من **عبد الله بن سوار** القاضي وسيلة لنقل مثل هذه المعلومات، فإنَّه لا يجد حرجاً في أن يكون هو ذاته هذه الوسيلة، حَتَّى وإن كانت تهكميَّة، مع اختلاف الغرضين هنا وهناك.

حقًّا إنَّ **الجاحظ**، على عبقريته وألمعيته، وسموِّ مكانته ورفعته، شخصٌ مفعمٌ بالطَّرافة، موشَّحٌ بالظَّرافة. متفرِّدٌ في روحه الدعابية الفَكِهَةِ، متفرِّدٌ في ذلك ببراعته وأسلوبه وخصائصه وموضوعاته، «إنَّ حدَّة قوى ملاحظته، وريبيَّته . Scepticism وقلبه المستنير، وحسُّه السَّاخر الهازئ، قد قادته إلى تكييف فكره مع ميوله في تصوير النَّماذج الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، موظِّفاً كلَّ مهاراته ومعارفه في ثلب أخلاق عصره وعاداته وأحواله»[١٦١]، كلُّ ذلك بأسلوبٍ ممتعٍ رشيقٍ، ومنهجٍ علميٍّ دقيقٍ، ولفظ باهرٍ، وتعبيرٍ ساحرٍ، ممتزجاً بالنكتة حيناً، وبالسُّخرية حيناً، وبالتَّهَكُّم حيناً ثالثاً، يواجهك في الخطاب تارة، ويتوارى خلف

(١٦٠). الجاحظ: **الحيوان**. ج٣. ص ٣٤٦. ٣٤٧.

161- Encyclopedia of Islam. vo 2 p. 386

شخصيَّات محدِّثيه تارةً أخرى، يناقشك بمشكلة ويترك لك الباب مفتوحاً لتدلي بدلوك إن شئت.

ولعلَّنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن **الجاحظ** قد بلغ بفنِّه التَّهَكُّمي مبلغاً منقطع النَّظير في التَّاريخ، ولبراعته في ذلك فقد طاش ذكره وفنُّه على ملء عينه، وارتفعت مكانته وسمت بين معاصريه، فصار المقرَّب من ندماء الخلفاء والوزراء والأمراء على الرَّغْمِ من دمامة خلقته وقبيح هيئته، حَتَّى صار يتهكَّم بمن يتهكَّم ولا يجد من يجرؤ على التَّهَكُّم به. قال **ياقوت الحموي**: «قيل **لأبي هفَّان** لم لا تهجو **الجاحظ** وقد ندَّد بك وأخذ بمخنقك؟

فقال: أمثلي يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنَّ بيتٌ في ألف سنة»(١٦٢).

وهذا حقٌّ ولا غرابة فيه، فحديثه وتهكُّمه بالبخلاء حَتَّى في أحاديثه من دون الكتاب، خوَّف النَّاس من شرِّ لسانه فتحاشى من يعرفه ألا يظهر كريماً أمامه، وأظهر البخلاء بخلهم أمامه ليطير ذكرهم في البلاد وتبتعد النَّاس عنهم خشية اضطرار تكلُّف أقلِّ القليل، وما زلنا نتندر بطرائف قصصه ونوادره، وبدائع تهكُّمه حَتَّى الآن، وكيف لا يحلِّق قوله في أذهان النَّاس وأخيلتهم وهو الذي لم ينس نفسه من التَّهَكُّم، حَتَّى فيما لا يظنُّ فيه إمكان تهكُّم؛ في نسيان اسمه، وهل هناك من ينسى اسمه؟! قال: «نسيت كنيتي ثلاثة أيام فسألت أهلي : بم أكنَّى، فقيل لي: **أبو عثمان**»(١٦٣).

---

(١٦٢). ياقوت الحموي: **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**. ج ٦. ص ٧١. انظر ذلك أيضاً في: شارل بللا: **الجاحظ**. ص ٣٧٤.

(١٦٣). الدكتور جميل جبر: **نوادر الجاحظ**. ص ٢٩.

ولو أردنا تتبع العوامل المؤثِّرة في ميل **الجاحظ** التَّهَكُّمي لوجدنا إضافةً إلى ما سبق عاملاً لا يمكن نعته بالوراثي، وهذا مما جنح إليه بعض الباحثين، ألا وهو شخصيَّة أمِّه ونزوعها التَّهَكُّمي، ويؤكِّد ذلك قصَّته الشَّهيرة معها إبان مرحلة الطُّفولة، وقد كان مغرماً بطلب العلم والمعرفة، الأمر الذي أثار أمَّه ودفعها إلى التَّهَكُّم به إذ «يُروى أنَّ أمَّه ضاقت بانهماكه في الدَّرس والقراءة، فطلب منها يوماً طعاماً، فجاءته بطبق مليءٍ بكراريس أودعها البيت، وقالت له: ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس. تريد أن تنبهه إلى التكسُّب، ولكن **الجاحظ** على صغر سنِّه أبى أن يترك الأمر يمرَّ هكذا من دون ردٍّ، وكان الردُّ تهكميَّاً أيضاً فقد، ذَهَبَ إلى الجامع مغتمًّا، ولقيه **مويس بن عمران** أحد رفاقه الأثرياء في الدَّرس. فسأله: ما شأنك؟ فحدَّثه بحديث أمِّه، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً، فأخذها فرحاً، ودخل السُّوق، واشترى الدَّقيق وحمله الحمَّالون إلى داره، وسألته أمُّه: من أين لك هذا؟ فقال لها: من الكراريس التي قدَّمتها إليَّ»[١٦٤].

(١٦٤). شوقي ضيف: **العصر العباسي الثاني**. ص ٥٨٨.

مراجع الكتاب

أولا : العربية والمعربة

- أبوهلال العسكري: **الصناعتين؛ الكتابة والشعر** ـ تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٥٢ م.
- أميرة حلمي مطر: **فلسفة الجمال؛ نشأتها وتطورها** ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٨٣م.
- بسام (ابن بسام): **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٣٩م.
- التوحيدي: **البصائر والذخائر** ـ ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.
- التوحيدي، أبو حيان: **البصائر والذخائر** ـ تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني ـ مكتبة أطلس ـ دمشق ـ ١٩٦٤م.
- ج. دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ د. ت.
- الجاحظ: **آثار الجاحظ** ـ تحقيق عمر أبو النصر ـ مطبعة النجوى ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.
- الجاحظ: **آثار الجاحظ** ـ تحقيق عمر أبو النصر ـ مطبعة النجوى ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م.
- الجاحظ: **البخلاء** ـ دار صادر ـ بيروت ـ د. ت.

- الجاحظ: **البيان والتبيين** ـ تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت ـ ١٩٦٨م.
- الجاحظ: التربيع والتدوير . تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت . د.ت.
- الجاحظ: الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت/ دار الفكر . دمشق . ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.
- الجاحظ: رسائل الجاحظ «الرسائل الأدبية» . قدم لها وبوبها وشرحها د.علي أبو ملحم . دار مكتبة الهلال . بيروت . ط ١ . ١٩٨٧م.
- الجاحظ: نوادر الجاحظ . جمعها وقدم لها الدكتور جميل جبر . دار الأندلس . بيروت . ١٩٦٣م.
- جميل جبر (جمع وتقديم): نوادر الجاحظ . دار الأندلس . بيروت . ١٩٦٣م.
- حسن السندوبي: أدب الجاحظ؛ بحث تحليلي . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . ١٩٣١م.
- خلكان (ابن): وفيات الأعيان . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط ١ . ١٩٤٨م.
- شارل بللا: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء . ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني . دار الفكر . دمشق . ط ١ .١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- شفيق جبري: الجاحظ معلم العقل والأدب . محاضرات كلية الآداب . دمشق . ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.
- الشهرستاني: الملل والنحل . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . ١٩٦١م.
- شوقي ضيف: **تاريخ** الأدب **العربي** «**العصر العباسي الأول**» . دار المعارف . القاهرة . ط ٢ . ١٩٧٣م.
- طه الحاجري: الجاحظ؛ حياته وآثاره . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٢م.

- عادل العوا (الدكتور): دراسات أخلاقية . ص ٣٩٩.
- عادل العوا: دراسات أخلاقية . منشورات جامعة دمشق . المطبعة الجديدة . دمشق . ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- عبد الكريم اليافي: دراسات فنية في الأدب العربي . د. ن . د. م . ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢م.
- عزت السيد أحمد: التهكم وفن الإضحاك عند التوحيدي ـ مجلة الموقف الأدبي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٢٧٧ أيار . ١٩٩٤م.
- عزت السيد أحمد: الشك المنهجي من الإمام الغزالي إلى ديكارت . مجلة التراث العربي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٤٤ . ١٩٩١م.
- القاضي عبد الجبار الهمذاني: فرق وطبقات المعتزلة . تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي . دار المطبوعات الجامعية . مصر . ١٩٧٢م.
- قتيبة (ابن): الشعر والشعراء . تحقيق الدكتور مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- محمد عبد المنعم خفاجي: أبو عثمان الجاحظ . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ط١ . ١٩٧٣م.
- محمد كرد علي: أمراء البيان . دار الأمانة . بيروت . ١٩٦٩م.
- المرتضى، أحمد بن يحيى بن المرتضى: طبقات المعتزلة . المطبعة الكاثوليكية . بيروت . ١٩٦١م.
- المسعودي: مروج الذهب . تحقيق محيي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . ١٩٦٤م.
- النديم (ابن النديم): الفهرست . المطبعة الرحمانية . القاهرة . ١٣٤٨ هـ.

- هنري بيرجسون: الضحك . ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم . دار العلم للملايين . بيروت . ط ٣ . ١٩٨٣م.
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء؛ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ دار المشرق . بيروت . د.ت.

ثانياً: الأجنبية

- **1 - The Encyclopedia of Islam . Leiden , Netherlands . 1983 .**
- **2 - The Enyclopedia of PHilosophy . Macmillan publishing co , New york / London . 1972 .**
- **3 - Albee . E : Hestory of English Utilitarianism . London .**
- **4 - Bentham . J : AnIntroduction to principles of Morals and Legislation . London .**
- **5 - Braddn .M : The Name and Nature of Modernismin . Penguin books . London . 1987 .**
- **6 - Bruhi . L :La Morale et la Science des Mœurs . Paris .**
- **8 -Foulquiè . P : Traite Elèmantaire de Philosophi . Paris .**
- **9- Hobbes . Th :The Elements of Low, Moral and political .London .**
- **11 - Lalande . A : Vocabulaire Techique et de la Philosophie . 8ème ed. Paris . 1960 .**
- **13 - Nietzsh . F: Par Dela le Bienet la Mal . ed nouvelle . Paris . 1973 .**

صدر
من كتب المؤلف

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.

- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات . إيبرو للطباعة . بيروت . ٢٠١٦م.
- البحيري؛ عبقرية وغربة وجمال . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة ثورة في كل شيء . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.

- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين . . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- سكر مالح (قصص) . حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- صوت السوط (مسرحية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- الطريق إلىٰ الإبداع؛ نحو نظرية جديدة . إيبرو للطباعة . ٢٠١٦م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العدوان الأمريكي على سوريا؛ حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.

- العدوان الروسي على سوريا؛ مشروع إبادة الشعب والحضارة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كاسيوس لونجينوس: الرائع؛ بحث جمالي فيمة الروعة . ترجنة ودراسة تقديم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.

- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- الكل يطلق المار النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.

- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- نزيف العقل العربي؛ رؤية في هجرة الكفاءات العربية . العالم العربي . عمان . ٢٠١٦م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

الفهرس

الإهداء ٠٠٥
مقدمة الكتاب ٠٠٧
الفصل الأول: شخصية الجاحظ وفلسفته..... ٠٠٩
مقدمة ٠١١
اسمه ونسبه..... ٠١١
ثقافته ٠١٣
فلسفته..... ٠١٧
الاتجاه الجاحظي في الاعتزال..... ٠١٩
منحج الجاحظ العلمي..... ٠٢١
شخصيته..... ٠٢٥
الحياة في الاجتماعية في عصر الجاحظ..... ٠٣٠
أولا: الطبقات الاجتماعية..... ٠٣١
ثانياً: البذخ والترف..... ٠٣٦
ثالثاً: اللهو والمجون ٠٣٨
آثاره..... ٠٤٢
الفصل الثاني: فلسفة الضحك عند الجاحظ..... ٠٥٣
مقدمة..... ٠٥٥

فضائل الضحك..... ٠٥٨
وظائف الضحك..... ٠٥٩
مواضع الضحك..... ٠٦٤
ضرورة التنوع في التأليف..... ٠٦٥

الفصل الثالث: فن الإضحاك عند الجاحظ..... ٠٦٩

مقدمة ٠٧١
القبح الجمالي ٠٧٢
القبح وفن الإضحاك..... ٠٧٤
أصل الإضحاك..... ٠٧٥
علة الإضحاك..... ٠٧٨
أولا: المباغتة..... ٠٧٩
ثانياً: التطرف..... ٠٨٢

الفصل الرابع: أصالة الجاحظ في التهكم..... ٠٨٧

مقدمة ٠٨٩
بواعث التهكم..... ٠٩١
أولاً: التهكم بالطبع..... ٠٩١
ثانياً: تهكم التشفي..... ٠٩٥
وظائف التهكم..... ٠٩٨
أولاً: الشجب..... ٠٩٨
ثانياً: الدفاع عن النفس..... ١٠٢

الفصل الخامس: الجاحظ والتهكم الذاتي..... ١٠٥

مقدمة ١٠٧

تصالح الأضداد..... ١١٠

البادئ أظلم..... ١١١

واحدة بواحدة..... ١١٤

سلطان الذبان..... ١١٥

مراجع الكتاب ١١٩

صدر من كتب المؤلف ١٢٣

الفهرس..... ١٢٩

العربي
The Arab World
for Publishing

SARCASM AND LAUGHTER AT AL-JAHIZ

BY BROF. Dr.
EZZAT ASSAYED AHMAD

Publisher
The Araboc World for publishing

The Arab World for Publishing

Amman. 2017
Emil: sameah3@gmail.com

هذا الكتاب

إن تهكم الجاحظ الذاتي، وهذا ما سيتضح لنا جليا في أثناء عرضه، ينبي عن خصائص وسمات أخلاقية رفعية ومستحبة ومحمودة، نتمنى وجودها لدى كل منا؛ كالأريحية في التعامل مع الذات والآخرين، والبساطة في ذلك بعيدا عن عقد النقص والقصور ومتاهات الخداع والتضليل التي قلما وجدنا من تعافى منها، كلها أو بعضها، كما يكشف هذا التهكم عن تواضع جليل، وصدق نبيل، وأمانة في النقل والتصوير، وبالمختصر؛ لم يكن التهكم الذاتي عند الجاحظ لمحض الإضحاك أو تكميل سلسلة ضروب فنون الإضحاك، وإنما كان مؤشرا على مجموعة من الخصال الأخلاقية اللطيفة الظريفة، وحتى وإن كان غرض الجاحظ من ذلك محض الإضحاك فإننا لا نستطيع إلا أن نؤكد ما تؤشر إليه من الخصال الأخلاقية السالفة الذكر، وفي النماذج التالية ما يؤكد هذا الاتجاه خير التأكيد

التهكم وفن الإضحاك عن الجاحظ
الدكتور عزت السيد أحمد
العالم العربي للنشر

The Arab World for Publishing
2017